الإسلام ينادي البشر

هذا الرسول

ـلى الله عليه وسلم

خالد محمد خالد

المقطم
للنشر والتوزيع



الإسلام ينادي البشر

إلى هذا الرسول

صلى الله عليه وسلم



خالد محمد خالد

الإسلام ينادي البشر

إلى هذا الرّسُول

صلى الله عليه وسلم



الطبعة الأولى

ذو القعدة ١٤١٦ هـ - ابريل ١٩٩٦ م

القاهرة

الغلاف من تصميم : محمد أبو طالب

تم الجمع بوحدة الكمبيوتر

بإشراف : عصام يس

المراجعة اللغوية : إبراهيم الفارسي

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين

القاهرة

ص. ب : ٥٨ باب اللوق - ١١٥١٣

ت : ٣٥٥٨٧١٥ - فاكس: ٣٥٤٦١٠٩

المطبعة : فيكتور كيرلس .

الفهـــــرس

للمؤلف

١ - من هنا . . نبدأ.
٢ - مواطنون.. لا رعايا.
٣- الديمقراطية ، أبداً.
٤- الدين للشعب.
٥ - هذا . . أو الطوفان.
٦ - لكى لا تحرثوا فى البحر.
٧ -لله ، والحرية (ثلاثة أجزاء).
٨ - معاً على الطريق.. محمد والمسيح .
٩ - إنه الإنسان.
١٠- أفكار فى القمة.
١١- نحن البشر.
١٢- إنسانيات محمد.
١٣- الوصايا العشر.
١٤- بين يدى عمر.
١٥- فى البدء كان الكلمة.
١٦- كما تحدث القرآن.
١٧- وجاء أبو بكر.
١٨ - مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره.
١٩ - كما تحدث الرسول (مجلد).
٢٠ - أزمة الحرية فى عالمنا.
٢١- رجال حول الرسول (مجلد).
٢٢ - فى رحاب على.
٢٣ - وداعاً . . عثمان.
٢٤- أبناء الرسول فى كربلاء.
٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز.
٢٦- عشرة أيام فى حياة الرسول.
٢٧- والموعد الله.
٢٨- خلفاء الرسول (مجلد).
٢٩- الدولة فى الإسلام.
٣٠- دفاع عن الديمقراطية.
٣١- قصتى مع الحياة.
٣٢- لَو شَهِدْتُ حِوارَهم لَقلْتُ .
٣٣- الإسلام ينادى البشر.
٣٤- إلى كلمة سواء (تحت الطبع).

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام، على رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم .

وبعد-

فهذا الكتاب الذى بين يديك -أيها القارئ الكريم- هو بحق مسك الختام. ختامٌ لعطاء طويل من الأعمال المباركه التى نفع الله بها الملايين من الناس فى أنحاء المعمورة، ولايزال نفعها وبركتها فى ازدياد يوماً بعد يوم، إلى ماشاء الله مثل: "رجال حول الرسولﷺ"، و"خلفاء الرسولﷺ"، و"أبناء الرسولﷺ فى كربلاء"، و"والموعد الله" و"كما تحدث القرآن"، وغيرها من العطاءات، التى رفعت اسم صاحبها فى الخالدين، وحبته بنصيبٍ وافرٍ من دعاء الصالحين* .

لقد كانت نية الكاتب الراحل** -رحمه الله- أن يكون هذا الكتاب جزءاً أول من كتاب كبير ينتظم أربعة أجزاء، يقدم فيه الإسلام بكل جوانبه إلى عَالَم اليوم الذى عانى -ولا يزال يعانى- الأمَرَّين نتيجة جهله بهذا الدِّين، ولكن الأجل لم

---

* أنظر قائمة أعمال المؤلف ص ٦ من هذا الكتاب .

** انتقل الأستاذ خالد محمد خالد - عليه رحمة الله - الى جوار ربه ليلة الجمعة ١١ شوال سنة ١٤١٦ هـ الموافق أول مارس سنة ١٩٩٦ م

يمهله، فلم يتمكن إلاّ من إتمام هذا الجزء عن رسول الإنسانية صلى الله عليه وسلم.

وعلى الرغم من كثرة ما كَتب عن الرسول- صلى الله عليه وسلم، فقد كان المؤلف -رحمه الله- دائم الشعور أنه لم يكتب بعد ما يريد أن يبثه فى صفحات الكتب عن هذا النبى العظيم صلوات الله وسلامه عليه، فإنه كلما نزل بساحته، وقف مبهوراً أمام نوره السّاطع ، وشذا عطره الفواح.. أى بشر هذا ؟، وأى نبى ورسول ؟

لذلك فقد كان توفيق الله عظيما أن ختم أعمال كاتبنا الراحل -عليه رحمة الله- بهذا الكتاب الذى هو -بين كتبه- دُرّة غالية، وعطاء فذ جديد، كأنه به قد ترك وصيتة للبشرية جمعاء على اختلاف أديانها ومذاهبها، أو ألقى على أسماعها نداءه الأخير، الذى أودعه كل عزيمته:

يا أهل الأرض جميعاً ليس لكم خلاص، ولا نجاة، ولا سعادة، ولا هناء ، إلاّ باتباع هذا الذى بعثه الله للناس كافّة هدى ورحمة.

اللهم اجعل هذا الكتابَ مقبولاً عندك، ثَقّلْ به موازين مؤلفه، وزده من عطائك وإحسانك، وصلى اللّهم على سيدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الناشر



بين يدى الكتاب

فى عام ١٩٨٥ للميلاد رغب المسئولون عن مجلة "الحرس الوطنى" السعودية فى أن أكتبُ لهم مقالاً دوريًّا، وأستجبتُ لرغبتهم الكريمة، وبدأت أكتبُ . . .

و لم يأخذنى تفكير طويل فى الموضوع الذى سيستأثر بكتابتى وبقلمى.

ذلك أنه كان ثمة موضوع ينادينى فى إلحاح، وأنا أتمناه فى شوق.

كان الموضوع عبارة عن تقديم الإسلام- كما أفهمه- إلى عالمنا المعاصر، لعلّه يجد من أمره رشدًا، ولعلّه حين يقرأ هذه الكلمات يجد فيها ما وجده آباؤه السالفون فى غيرها من نور هذا الدِّين وحكمته.

واخترتُ العنوان الذى أبثُّ فيه فكرتى تِباعاً، وكان :

((الإسلام ينادى البشر))

وكتبت بضع مقالات وأنا بها سعيد، حتى أدركتنى - فجأة- بداية مرض طويل، فرحتُ أحاول وأستنجد ببقايا صحتى وعافيتى، حتى جاءت الأيام التى كَلَّ فيها متنى، وتخلى عنى جهدى فاكتفيت بما كتبت للمجلة، ولجأت إلى الله الفتّاح العليم، ألاّ يحرمنى من إتمام نعمة هذا الكتاب، الذى تصورته وسيلة خلاص ناجعة لهذا العالم المتخبط والتعس.

وأخذ المرض لا أدرى أقول : " يداعبنى " أم "يشاغبنى"، ولم يكن أمامى سوى الطمع فى فضل الله وانتظار فرجه القريب...

* * *

وما كان للشوق الحميم أن يتركنى للهدوء والتّصبُّر؛ فقد كان تفكيرى كله فى هذا الكتاب، ورغائبى كلها فى أن أحمل قلمى مرة أخرى لأبثّ به ما يفتح الله من كلمات.

وجاء يوم يحمل إشراقة الأمل، وصحوة العمل، فمضيت مع الكتاب محاولاً قدر جهدى أن أمضى معه وفيه خطوات تشجعنى على عزيمة السير والمتابعة . . .

كانت رغبتى فى إتمامه مواكبة لإحساسى بقرب الرحيل..!

وكان همى كُلّه أن أفرغ منه قبل أن أُدْعَى فأُجِيبُ..

فرحت أُغذّ الخُطَى، وأقتحم الصّعب، مِمَّا جعل المرض يَشتدُّ ويقوى، ولم يعد يبدو لى إمكان تأليف الكتاب كلّه.

وقبل أن يقيِّد الكسل واليأس خطاى، أشار علىَّ ابنى محمد، ناشر هذا الكتاب، وصاحب دار المقطم للنشر والتوزيع، بأن أكتبه مُجزءًا، ويصل للقارئ فى أجزاء، كما حدث فى كتاب "رجال حول الرَّسول" ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أُخرج فى خمسة أجزاء، ثم لا يحمله القارئ اليوم إلاَّ مجلد واحد، ينتظم الأجزاء الخمسة.

وتذكرت الحكمة القائلة: "مالا يُدرك كُلّه لا يُترك كلّه..."

ومضيت أستأنف كتابة مارأيت أن يكون الجزء الأول من الكتاب وهو هذا الذى يحمله القارئ بين يديه . .

* * *

ولكن إلى أى شيء ينادى الإسلام البشر؟

هذا طبعاً موضوع الكتاب، فهو ينادى البشر:

- إلى هذا الرسول
- إلى هذا الكتاب "القرآن"
- إلى هذا الدين

- إلى هذه التجربة

وفى هذه الصفحات يقدم الكتاب جُزءه الأول

"الإسـلام ينـادى البشـر

إلى هـذا الرسـول"

وقد بنيت على بعض مـا كنـت قـد كتبتـه لمجلـة "الحـرس الوطنى"، وَتتبَّعتُ بقية مالم يكن قد نُشِرَ من قبل، فجـاء ممثـلاً لما أردت أن أقوله عن نداء الإسلام ودعوته البشـر لِلُقيـا هـذا الرَّسُولِ العظيم صلى الله عليه وسلم.

خـالد محمد خالد

القاهـرة - ١٩٩٦

بين يدى الكتاب

فى رائعة النهار . . نهار يوم من أيام الحجّ الأكبر، نزل الوحْيُ على قلب الرسولﷺ بآية الختام :

﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لكُمْ دينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عليكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلاَمَ دِينًا ﴾

الآية ٣ ـ سورة المائدة

* * *

كانت الآية الكريمة تسجيلا للمشهد الختامى فى رحلة الوحى التى لبث "جبريلُها" الأمين عليه السلام، يغدو خلالها بين السماء والأرض على مدى ثلاثة وعشرين

عاما ، حاملا نور السماء إلى الأرض .. وكلمة الله إلى الناس .. ومنهج الحق والهُدى والخير إلى الحياة والأحياء ..!!

والآية ، وإن تَكُ تتّجه بخطابها المباشر والقريب إلى عشرات الألوف من المسلمين الحافّين يومئذ حول رسولهم العظيم . وإلى مِثْلهم من المسلمين الجُدُد المبثوثين يومئذ فى مَناحى الجزيرة الواسعة المتراحبة، إلاّ أنها مع ذلك كانت تُجاوز كل تخوم الزمان والمكان لتنادى بخطابها المضاء بنور الله جميع الناس، العائشين على ظهر هذا الكوكب المعاصرين منهم يومذاك، والوافدين على الحياة من بعدهم على مدى الأجيال التى ستستقبلها الأرض ، ما أذِن الله للأرض أن تبقى وتدوم..!!

ذلك أنها تنزّلت على رسولٍ قدمته السماء للناس كافة .

﴿ قُلْ يا أيُّها الناسُ، إنّى رسولُ الله إليكُمْ جَمِيعًا ﴾

الآية ١٥٨ سورة الأعراف.

واختاره الله واصطفاه ، ليكون رحمَتَه المُهداة إلى البشرية كافّة. ﴿ ومَا أرسلناكَ إلاّ رحمةً للعالَمِينَ﴾

الآية ١٠٧ ـ سورة الأنبياء.

كذلـك أعلنـت الآيـة الكريمـة اكتمـال الديـن الواحـد ، والذى كان دائمًا واحدًا .. منذ نوح وإبراهيم ، وحتى موسى وعيسى ومحمد .. عليهـم وعلـى إخوانهـم الأنبيـاء والمرسـلين أفضلُ الصلاةِ وأزكى السلام .

ذلك الدين الذى اشتُقَّ اسْمُه من حقيقته ..

فحقيقة الدين ، إسلام القلب والوجه والسلوك لـلّه رب العالمين .

وهكذا ، وبهذه المثابة ، كانت الأديان كلهـا بـل قولـوا كان الدين كلهُ إسلاما ، وكان الرسل كلّهم مسلمين ..!!

﴿ هـو سمَّاكُـمُ المسلمِينَ مِنْ قبلُ، وفى هذَا، لِيكُونَ الرَّسُولُ شهيدًا عليكُـمْ، وتكُـونُـوا شُهَـداءَ علَى النَّاسِ﴾ الآية ٧٨ ـ سورة الحج.

﴿ يحكُـمُ بهـا النبيُّـون الَّذِينَ أَسلَمُوا ﴾

الآيـة ٤٤ سـورة المـائدة.

﴿ ما كَان إِبراهيـمُ يهُـوديّـاً ولا نَصْرانيّاً، ولكِنْ كانَ حنيفًا مُسْلِمًا

وما كانَ مِنَ المشرِكينَ﴾

الآية ٦٧ ـ سورة آل عمران.

نزلت الآية إذن تسجِّل اكتمال الحلقة الأخيرة من دين الله، وتُنْبِئ البشر جميعا أن الموثِّق الذى بين الله وبينهم. قد بلغ الآن منتهاه وشارف غايته ! !

ومن اليوم ستُطوى الصحف ، وتجف الأقلام ، ويتوقف الوحى . .

ويبدأ الذكاء الإنسانىّ والإرادة الإنسانية اللذان أحسن الدين تدريبهما عَبْر القرون . . يبدآن استئناف المسيرة فى نور الوحى المذخور بين صفحات الكتاب المنزَّل :

من صحف إبراهيم وموسى .. إلى الإنجيل فالقرآن.

ومِن ثَمَّ ، لم يكن الإعلام بختام النبوَّة والوحْى حَجْرا على مستقبل الإنسان - بل كان إفساحا لهذا المستقبل، ودعوة للذكاء الإنسانىّ كى يحمل مسئوليته الكاملة تجاه الإنسانِ ومصيرِه، وتجاه الحياة وإرْبائها . مهتدين بهدى الله، ونور الحقيقة، وإلهام المُعاصرَة.. وهكذا يكون سيدنا "محمد"ﷺ وتكون رسالته رحمة للعالمين .

وكما لم يكن الإسلام حَجْراً على ما بعده ، فإنه كذلك

لم يكن إلغاءً لما قبله، ولا افتياتا عليه.

﴿ شَرَعَ لكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وصى بهِ نُوحًا، والَّذى أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ، وَمَـا وصَّيْنَا بهِ إبراهيمَ ومُوسَى وعِيسَـى، أنْ أَقِيمُوا الدِّينَ، ولا تتفرقوا فيهِ ﴾

الآية ١٣ ـ سورة الشورى.

﴿ قُولوا آمنَّا بالله ومَا أُنزِلَ إلَيْناوَمَا أُنزِلَ إلَى إبرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسحَاقَ ويـعقُـوبَ والأَسبَـاط، وَمَـا أُوتِـىَ مُـوسَى وعـيسَى، وَمَا أُوتِىَ النبيُّونَ من ربِّهِمْ، لاَ نُفرِّقُ بين أحدٍ منهُـمْ، ونحنُ لَه مُسلِمُونَ ﴾

الآية ١٣٦ ـ سورة البقرة.

لقد كان الإسلام التجربة الحيّة الثَرِيّة المُهداة للبشرية فـى عصرهـا الجديـد، حاملـة مـن الـتراث السـابق كـل جوهـره الفريد.. ومُضيئة للزمن القـادم كل طريقه المديد.. من أجـل ذلك، لم يكن من حقه فحسب ـ بل كان من تبعاته قبْلا ــ أن ينادى البشر– جميع البشر– إلى نهجه وتجربتـه، وهُـداه.. وإلى

رسوله، وقرآنه وسناه..!!

* * *

ولقد تحقّق وعْدُ اللّه لهذا الدين بنشر رياحه ورفع لوائه، وحفظ كتابه..!! ﴿ إنّـا نحـنُ نزّلنـا الذّكْرَ، وإنّا لَهُ لحافِظُونَ ﴾ الآية ٩ ـ سورة الحجر.

وهكذا عاش الإسلام ألف عام وأربعمائـة عـام ، تعـرّض خلالها لسيول طامية وجارفة من المناورات والمؤامرات والمكائد والحروب ، واستودع ثرى الأرض فى أكثر جنباتها وأقطارهـا أعدادًا مباركـة وهائلـة مـن شـهدائه . . ثـم لا يـزدد إلا تألّقـاً وتفوقًا ونماءً .

تُغادر كلمةً من قرآنه مكانهـا فـى مئـات الملايـين مـن المصاحف رغم كل محاولات التحريف والبَغْيِ . . ! !

و تَغِبْ شعاعة واحدة من شمس عقائده ومبادئه . رغـم كل محاولات الإطفاء والبهت . . ! !

بـل ولّـوْا مُدبريـن أمـام زحفـه ، أولئـك الشـانئون والضاغنون عليه .. ولّوْا وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، ويجترُّون خيبة الأمل ومرارة الإفلاس . . ! !

أجل .. على الرغم من كـل مـا اقترفتـه قـوى الشرّ والظـلام

ضد الإسلام فى قديم الزمان وحديثه ، بقى لروحه شبابها النضير ، ولمبادئه توهُّجها . وبقِىَ كِيانه الداخلىُّ كله متفوِّقاً على كلِّ محاولات الكيد والإحباط..!! وكم كانت رحمة الله واسعة ـ حتى بخصومه ـ حين لم ينهزمْ هذا الدين العظيم أمام مكائدهم الجائحة. فبقىَ نورُه وبقيت حضارته ، ليأخذوا بأيدى شعوبهم وبلادهم من وهدة الظلام ، والانحطاط، والهمجية. إلى مدنية ما كانوا ببالغيها لولا الإسلام ونوره.. ولولا الإسلام وحضارته . . ! !

ألا إنه إذا كان هذا الدين حقا، لا وهْمًا .

وإنه لكذلك . .

وإذا كان ضرورة ، لا ظاهرة .

وإنه لكذلك . .

وإذا كان دوره فى هداية البشرية وقيادتها لم ينتَهِ ، ولن ينتهىَ .

أقول : إذا كان ذلك كذلك، فإن إصغاء البشر لندائه إيّاهم وهُتافه بينهم، يصير من أقدس تبعات رُشدهم، ومسئوليات وجودهم . . ليس لأنه يتجاهل ماسبقه مِنْ مراحل الدين، ولا من سبقه من المرسلين . . بل لأنه – دون بقية

الأديان ـ يمثل الكلمة الخاتمة والجامعة لتوجيهات السماء، ويمثل الخلاصة المركزة للتجربة الدينية التى بدأت مع أول نبى ورسول إلى أن أتمّ الله نوره ونورها مع آخر نبىّ ورسول .

فالإسلام بحكم كونه خاتم الأديان قد استبقى منها، واصطحب معها كل جوهرها الفريد، ومضمونها العميم.. كما أنه بهذه المثابة يؤكد حق جميع الرسالات، وجميع المرسلين فى الإيمان بها وبهم .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنزِلَ اليْهِ مِنْ رَبِّه، والمؤمِنُون . . كُلٌّ آمَنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبه، ورُسُله، لا نُفرِّق بين أحَدٍ مِن رُسُلِهِ .. وَقَالُوا سمِعْنَا وأطعْنَا غفرَانَك ربَّنا وإليْكَ المصيُر﴾

الآية ٢٨٥ ـ سورة البقرة .

فكل إيمان لدَى الإسلام مُهدر وخِدَاج، ما لم يكن إيمانًا بكافة الرسالات، وبجميع المرسلين..

والذين يؤمنون ببعض، ويكفرُون ببعض، لا يُقيم الإسلام لإيمانهم وزنًا، لأنهم بهذا التبعيض وبهذه التجزئة يسلبون الدين أهم خصائصه المتمثلة فى وحدته العضوية

والموضوعية، ويحرمون الحقيقة الدينية من أقوى براهين وجودها وصدقها..

ذلك أن الإسلام هو الحقيقة المشتركة فى كل برهان، بل الحقيقة المكوِّنة لكل يقين بوجود الوحى.. ووجود الدين.. ووجود الأنبياء والمرسلين . . ! !

وبمشيئة الله وعونه سنلتقى بتوضيح أكثر لهذه النقطة خلال ما هو آتٍ من صفحات البحث ومُنتجعاته . .

* * *

هناك، سنرى رأى العين، ونعلم علم اليقين أن الإسلام إذ ينادى البشر إليه ، إنما يناديهم إلى الحقيقة الدينية ممثلة فى كل رسالاتها، وكتبها ، ومرسليها ، بيضاء من غير سوء ، بعد أن ينفِى عنها تحريف المُبطلين، وضلالة المضلِّين .

كما سنعلم علم اليقين أنه حين يُنادى البشر إليه.. لاسيما فى عصرنا الماثل.. فإنما يناديهم ويدعوهم إلى خلاص أكيد من شِقْوة الضَّياع الذى يفتح أشداق أغواره الفاغِرة، ليبتلع فى غياهبها وظلماتها كل مالا حياة للإنسان بدونه مِن رُوحٍ وضمير.. من إرادة وفكر.. ومن اقتدار على تحرير وجوده ومُعانقة مصيره . . ! !

أجلْ.. إن الإسلام بوصفه كلمةَ الله الخاتَمة فى مجال الدين.. وبوصفه وصيَّة الله المُحكمة والبالغة فى مجال الحياة.. لقادر على أن يمنح العالم المظلم نوره .. ويهب هذا العالم الحائر المُلتاث هُداه .

هو قادر على أن يُزيح من طريق الكافة من الناس، والجموع الهادرة من البشر .. أولئك الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحقّ .. أولئك الذين يُمدُّونهم فى الغَىّ .. أولئك الذين كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وارْتابتْ قلوبهم، فهم فى ريبهم يتردَّدون . . ! !

الإسلام قادر اليوم ، وغدًا ، وبعد غد ، وأبدًا ، أن يُجلى عن أرض المسيرة الإنسانية "ديناصورات" البشر، ووحوش الغابة الآبقة ، كما استطاع ذلك فى أمسه القريب والبعيد بنور دعوته ، وصدق حجته ، وذكاء منطقه، وروعة ثباته ، وقوة إصراره ، وجلال تضحياته . . ! !

فيا من تظنُّون أن قد بعُدت عليكم الشُّقة. أصغوا للإسلام فى ندائه ، واقتربوا من بهائه ، وانهلوا من عطائه .

وإذا سألتم : إلامَ يدعوا الإسلام ؟ ؟ وإلى ماذا ينادى البشر ؟ ؟

أجيبكم : إنه يناديهم :

* إلى رسوله ..

* وإلى كتابه ..

* وإلى نهجه ..

* وإلى تجربته ..

أجل .. الرسول ، الكتاب ، والمنهج ، والتجربة ..

مِنْ هــؤلاء يتكــوّن الإســلام ، وبهــم تتحــدَّد معــا وخصائص شخصيته المضيئة والباهرة ..

وإليهم ينادى البشر فى حدبٍ عظيمٍ ، وشوق حميمٍ ..

" أتقولــــون : إنَّ "محمـــدًا"

كاذب . . ؟ ؟ ! !

إن الكذاب لايستطيع أن يبنىَ بيتاً

من الطوب ، فكيف برجـــل بنـى

عالَمــاً مـن المبـــادىء ، والأرواح،

والقلوب" . . ؟ !

أجلْ ـ إن الكذّاب لايستطيع ان يبنـى بيتًا مـن الطـوب، لأنّنا ببساطة سنقول له : أرنا هذا البيـت .. فتهـوِى أكاذيبُـه، ويُولى الدُّبر . . ! !

ومبادىء التّغيير والإصلاح ، لاسيَّما الكبيرمنها والجليـل، تُشبه أن تكون بناء من زُجاج . تكشف وتفضح كل ما يـدور داخلهاَ، ووفق ذلك تكشف أنفس الذين يهتفون بها، وتُعرِّيهم من كل أردية الخداع ، وأقنعة التمويه ! !

والصادقون بما وهبهم اللّه من هُدى قويم، وبما معهم من فطرة نقيَّة، تقيّة ، بيضاء من غير سوء .. هؤلاء يمشى نورهـم بين أيديهم .. ولصدْقهم إشراقٌ وضياء ! !

* * *

من أجل هذا ، كان أكثر أعداء الإسلام غباء ، وأوفـاهم

الفصل الأول

بَشَرٌ مثلكم

شخصية الداعى ، هى الدليل الحق ، بل الدليل الوحيد على شخصية الدعوة .

وحقيقة المبشِّر بفكرة ، والهاتف بعقيدة ، هى حقيقة الفكرة نفسها ، والعقيدة ذاتها .

والمتاجرون بالمبادئ ، مهما أوتوا من حذق فى التنكُّر ومهارة فى التخفى ، لا يستطيعون أن يخدعوا الناس عن دخائلهم وما يمكرون .. وهم آخر المطاف عاجزون تمامًا عن أن يُحوِّلوا البهتان إلى صدق ، والزّيف إلى حقيقة ! ! وكما قال "كارليل" فى كتابه "الأبطال" مُوجِّهًا كلماته وسُخرياته لزعماء "الكنيسة" فى الغرب :

نصيبًا من خيبة الأمل ، وسخرية الحقيقة ، أولئك الذين حاولوا ـ يائسين ـ النيْل من شخصية الرسول ﷺ .. وحاولوا ـ يائسين ـ أن يجعلوا عظمته الباهرة ، وخِصاله العظيمة ، والطّاهرة موضع هَمس ، أو مَدعاة تساؤل .. ناهيك عن اتخاذهم إياها موضوع رفض ، أو ارتياب . . ! ! وذلك حين كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وارْتابت قلوبُهم ، فهم في ريبهم يترددون ! ! !

والذين أُرْكِسُوا بما كسبوا من الغابرين أخفقوا إخفاقًا ما بعده إخفاق، وانتهى بهم طريقهم الزَّلِق إلى الهُوَّة الفاغرة، وصدَّهم عن النيْل من شخصيَّة "الرسول"ﷺ ما كان لهذه الشخصية من عظمة أصلها ثابت وفرعُها في السماء!!!

وخَلَف مِن بعدِهم خلْف، ثم خلْف، ثم أخلاف.. شهِدَتْهُم عصور تِلْوَ عصور، ماضين على طريق أسلافهم رافعين – في بلاهة وخيبة وتطاوُل– نزوة التحدى، وسفاهة الانتقاص .. فما كانوا أكثر من سابقيهم توفيقًا ، ولا أقَلَّ خُذلانًا وإخفاقًا . . ! !

ولعلَّ تاريخ البشرية لم يشهد شخصيَّة حيَّرت خصومها وشانئيها، وردَّتْهم على أعقابهم صاغرين، كما فعلت –

بأعدائها وخُصومها- شخصيَّة هذا الرسول العظيم . . ! !

ذلك أنها "شخصيَّة" مُضاءة ، يُرى باطنها من ظاهرها.. مفتوحة ، ليس حولها أسوار ولا أستار .. واضحة ومجلوة، كانبلاج الفجر وضوء النهار . . ! !

ولعلَّ أعظم ما تطالعنا به هذه الشخصيّة ، أنّه ليس بين مبادىء صاحبها وسُلوكه فراغ يتسع لمرور شعرة دقيقة ، أو خيط رقيق ! ! وأنه لم يبتعد طوال سِنِى عمره، عن مبادئه ولا بقيدِ أُنملة . . ! !

وكم كانت صادقةً أمُّ المؤمنين "عائشة" رضى الله عنها حين سُئلت عن أخلاقياته فقالت "كان خُلُقه القرآن" . . ! !

ونفس الموقف الذى اتخذه منه شانئوه ، اتخذوه تجاه القرآن وتجاه الإسلام .. فما ازدادوا إلا صَغارًا ، وخَسارًا ..

وبقى "الرسول"ﷺ و"القرآن" و"الإسلام" منارًا للسماء فى الأرض .. ونبعًا ـ لا يغيض عذبُه وفُراته .. يفيض بالهدى، والخير ، والحقّ .. وشرفًا تزكو به أقدار الإنسان وأقدار الحياة . . ! !

والسماء حين قدَّمت للأرضِ وناسِها خاتمَ الأنبياء وأجلَّ المرسلي، لم تقدِّمْه فى لُفافات من غموض. ولا فى طيَّات من

بهـذه الحقيقة ، ولا من اليـقين بأن "الصدق" هـو الذى سيضحك كثيرًا ، لأنه الذى يضحك أخيرًا . . ! !

وإنَّ للصدق ومضات خاطفةً يفجَأ بها الذين عَمُوا ، فإذا هم مبصرون . والذين صَمُّوا، فإذا هم يسمعون . . !!

وإنَّ للحقيقة "عبيرًا" يطرد كل ريح مُنتن وخبيث ، ولقد كان صِدْقُ "محمَّدٍ" ﷺ وعبيرُ "محمَّدٍ" ﷺ يدُلان عليه .. ويقودان إليه . .

فأمام "نجاشيّ" الحبشة ، وقف واحد من أتباعه والمؤمنين به يتحدث عنه .

وأمام "هرقل" الشام ، وقف واحد مُمَثِّلا لكل أحقاد قريش ، وكلِّ ضِغنها ولؤمها .

فهل اختلف الحديثان والمتحدِّثان فى الشهادة له؟؟ والاطراء الحقِّ لسمُوه ونُبله وعظمته . . ؟ ؟

أبدًا – لم يختلفا . . والتقت شهادة مؤمن الاثنين ومُشركِهما على أمر قد قُدر . . وعلى حقّ استبان وظهر..

وأبدًا ، لم يختلفا ، لأنَّ أنَفَة المشرك عزَفَت به عن أن يُعهد عليه الكذب ! ! وجعلته يعترف –اضطرارًا وكرهًا– بما كان "محمد الأمين" يُعرف به من نضارة الخُلُق، واستقامة

الأحاجى والألغاز .. بل قدَّمَتْه فى نور كتابه ، وشفافية إهابه.. شخصية مقروءة ، مثل كتاب مفتوح ومُتاح .. صيغت كلماته المسطورة بحروف كِبار . . ! !

فمن طفولته ، إلى شبابه ، إلى رجولته ، إلى مبعثه ، إلى مماته، وأنباء حياته المباركة منظورة بألف عين.. مسموعة بألف أذن .. يتعقّبها الأعداء والأصدقاء . . ! !

والقرآن العظيم حين قدَّم حامله ، ومتلقِّيه ، ومُبلغه، ورسوله، لم يُدَثِّره بقداسة زاجرة ، تجعل الناس يقفون أمامها رُكّعًا، وهيابين . . ! ! بل قدَّمه بوصفه "بشرًا" من البشر.. وواحدًا - بين - الجميع .. وإن هيَّأه تفوُّقه لأنْ يكون واحدًا -فوق- الجميع ! ! !

﴿ قُلْ إنّما أنَا بَشَرٌ مثلُكم ﴾

﴿ إنْ أنْتَ إلاَّ نذِيرٌ ﴾

﴿ إنّما أنْتَ مُذكِّرٌ، لسْتَ عليهِمْ بمسَيْطِرٍ ﴾.

هكذا علّمه القرآن أن يكون، وأن يقول.. ولقد كان، ولقد قال .. هذه الشخصية المقروءة والمسموعة.. المتواضعة والرفيعة.. لم يعْزُب عن صاحبها العظيم مثقال ذرة من الوعى

النهج، وجلال بواعثه، وصدق نيَّاته..!!

كان الذى تحدَّث أمام النجاشىِّ — جعفر بن أبى طالب – ابن عم الرسول.. وأحد الذين باكروا إلى الإسلام، وبيعة "الرسول" ﷺ وقف يقول:

"أيها الملك ..

"لقد كُنَّا قومًا أهل جاهليَّة،

نعبد الأصنام.. ونأكل الميتة..

ونأتى الفواحش . . ونقطع الأرحام.. ونُسىء الجوار.. ويأكل القوى منا الضعيف ..حتى بعث الله إلينا رسولا منا..نعرف نسبه، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه .. فدعانا إلى الله، لنعبده ونُوحِّده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان.. وأمرنا بصدق الحديث .. وأداء الأمانة .. وصلة الرحم .. وحسن الجوار .. والكفّ عن المحارم والدماء . . ! !

ونهـــانا عن الفـواحش.. وقـول
الزُّور.. وأكل مال اليتيم.. وقذْف
المُحـصنـات .. فصـدقنـاه وآمنـــّا
به . . " . ! !

هكـذا كان حديث مسلم عن رسـوله.. قالهـا فـى أمانـة راشدة، وصدق أبلج وعظيم . .

أما المتحدِّثُ عن "الرسول" ﷺ أمـامَ هِرَقْـل فكـان "أبـا سفيان" زعيم قريش يومئذٍ، وكبير المشركين.. وإنَّ أىَّ حديث عن الرسول ﷺ ، ليظل ناقصًا وخِداجًا ، مـا لم ينتظـم هـذا الـحوار الذكى والصادق، بين هِرَقْل وأبى سفيان . .

بدأ هِرَقْلُ الحوار بسؤال أبى سفيان.. عن النبى عليه السلام:

هرقلِ : ما حَسَبه فيكم ؟ ؟

أبو سفيان : هو فينا ذو حسب ..

هرقل : هل كان من آبائه مَلِك ؟؟

أبو سفيان : لا ..

هرقــل : هـــل كنتـــم تتّهمـــون بالكذب ؟؟

أبو سفيان : لا..

هرقل : هل يتّبعه أشـراف النـاس أم ضُعفاؤهم ؟؟

أبو سفيان : بل ضُعفاؤهـم ..

هرقل : أيزيدون ، أم ينقصون ؟؟

أبو سفيان : بلْ يزيدون

هرقل : هل يرتدُّ أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه، سخْطَة له؟؟

أبو سفيان : لا ..

هرقل : هل قاتلتموه ؟ ؟

أبو سفيان : نعم . .

هرقل : كيف كان قتالكم إيّاه ؟؟

أبو سفيان : تكـون الحـرب بيننـا وبينه سِجَـالاً.. يُصيبُ منـاّ، نُصيب منه . .

هرقل : فهل يغدر ؟ ؟

أبو سفيان : لا . .

هرقل : يأمُركم ؟ ؟

أبو سفيان : بالصـلاة، والزكـاة،

والصِّلة، والعفاف ..

هاتان شهادتان لعدو، وصديق.. لمشرك يحاربه، ولمسلم يصدِّقه.. فهل اختلفتا فى الهُتاف برفعة مناقبه، وسُموّ مبادئه..؟!

ولقد أعطَى "هرقل" فى ذلك اليوم البعيد مثلاً نبيلاً لمنهج الرجل الحصيف المنصف فى تمحيص الحقيقة، واستطلاع الرأى.

وعلى الرغم من أن لغط حاشيته، ومخافة التمرُّد من شعبه، قد صرَفاه عن اعتناق الإسلام. فإن الطريقة والحوار اللذين عالج بهما القضية المُثارة، قد أبَانَا جَدارة "الرسول" عليه الصلاة والسلام بالتصديق والإتباع.. بالتوقير والإِكبار.. حتى وَفْق مقاييس الحياد والتردد . . مادام حيادًا يتوخى النزاهة، وتردُّدًا ينتظر الشجاعة ، أو ينتظر البرهان . . ! !

وإنا لنستبينُ ذلك من الكلمات الناصعة والبارعة التى عقَّب بها "هِرَقْلُ" على هذا الحوار.. فقد قال لتَرْجُمانه:

"قل له ـ يعنى أبا سفيان ـ لقد
سألتك عن حسبه فيكم، فزعمْتَ
أنه فيكم ذو حسب .

وكذلك الرُسل تُبعث فى أحساب قومها ! !

"وسألتُك : هل كان فى آبائه مَلك ؟ . . فزعمت أن . . لا فقُلْتُ : لو كان فى آبائه مَلِك، لكان رجلا يطلب مُلك آبائه ! !

"وسألتُك عن أتباعه أضعفاء القوم أم أشرافهم ؟ فقلْتَ : بلْ ضعفاؤهم.. وكذلك أتباع الرسل ! !

"وسألتُك : هل كنتم تتّهمونه بالكذِب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمْتَ أن.. لا.. فعرفْتُ أنَّه لم يكُنْ لَيَدَعَ الكذِب على الناس، ويكذب على اللّه ! !

"وسألتُك: هل يرتدُّ أحد منهم عن دينه ، بعد أن يدخل فيه، سخْطَة له ؟ فزعمْتَ أن .. لا ..

وكذلك الإيمان إذا خالَطَتْ بشاشته
القلوب ! !
"وسألتك : هـل يزيـدون، أم
ينقصون؟ فزعمْتَ أنَّهـم يزيـدون..
وكذلك الإيـمان حتى يتِمَّ ! !
"وسألتك هـل قـاتلتُموه ..؟
فزعمْتَ أنكم قاتلتموه، وأن الحرب
بينـكم وبينـه سجـال، وكذلك
الرسُـل تُبـلَى . . ثم تكـون لهـم
العاقبة ! !
"وسـألتُك : هـل يغـدر ؟
فزعمْتَ أنَّه لا يغـدر.. كذلك
الرسُل لا يغدِرون ! !
ثم يختتم "هِرَقْلُ" حديثه البليغ قائلاً لأبى سفيان:
"إنْ يَكُ ما تقول حقًّا، فـإنه
نبىٌّ .. ولقـد كـنتُ أعلـم أنَّه
خـارج .. ولـم أكُنْ أظنُّه منكم ..
ولو أعـلم أنى أخـلص إليـه،

لأحببت لقاءه.. ولو كنْتُ عـــنده،
لغَسَلْتُ عن قدميه .." ! !

* * *

هكذا كان عبيره.. وكان نوره.. يَهديـان إليـه، ويـدُلاَّن عليه ! ! حتى أولئك الذيـن لـم يـروْه و لم يجلسـوا إليـه.. بـل كان مصدرهم في معرفتهم به مجرد السماع عنـه.. وممَّـنْ ؟ ؟ من أكثر خصومه لدَدًا، وأقساهم قلبًا ، وأعنفهم حربًا . . ! !

إن "هرقل" حين تمنى أن ينال شرف لقاء سيدنا "محمـد" عليـه الصـلاة والسـلام، وحـين ودَّ لـو ينـال غسـل قدميـه الشريفتين، لـم يكـن قـد شاهده، ولا عايشـه، بـل ولا رآه.. فكيف لو كان رآه ؟ ؟ !

إن كل ما عرفه به ، بضع كلمات سمعها عنه .. وممَّن؟؟ مـن ضـاغن ، وشـانيء ، وعـدو ، يقتلـع الحقيقـة مـن تحـت أضراسه اقتلاعًـا .. خشيـة أن يُعـرف عنـه الكـذب إذا هـو تجـانَف أو زاغ . . ! !

فكيف تفتّح عقـلُ "هرقـل" وقلبـهُ لهـذا الـذى سمع..؟؟ وكيف تضمَّخَتْ روحـه بعطرٍ ليس معـه قـارورتـه.. عطـر قـادم من بعيد . . ؟ ؟ ! !

وكيف انثنى صدره على ذلك الشوق الحميم إلى لقاء "الرسول"ﷺ وتلك الرغبة الحثيثة فى أن يغسل قدميه . . ؟!!

وكيف كاد يُسْلم لولا تصايح رجال حاشيته ، وأباطرة كنيسته . . ؟ !

لا أحسب أن ثمة سببًا يقدّم لنا جوابًا شافيًا ، ويفسّر لنا هذه الواقعة وهذه الظاهرة سوى ماكانت عليه شخصية الرسول ﷺ ، وشخصية دعوته من قوّة الصدق.. وقوة الجذب . . وقوة التأثير . . ! !

أمّا قوّة "الصدق" فلأنه كان رسولاً حقًّا، لا رسولاً مُنتحِلاً . . وكانت هناك نُبوءات صادقة ، وإرهاصات ناطقة بحتمية مجيئه ، وقُرْب ظهوره .. نُبوءات كان يعرفها العالِمون والمخلصون من أهل الكتاب ـ وإن استَغْشى عليها ثيابَهم قوم آخرون من أهل الكتاب وأيضًا انحدروا إلى كتمانها، وتردَّوْا فى إنكارها ! ! ! !

وأما قوّتا الجذب والتأثير، فلأنّ أولئك العِظام الذين يختارهم اللّه لحمل رسالته ، ويصطنعهم لنفسه ، ويصنعهم على عينه ـ يُودِع شخصياتهم من الفَيْض ومن الإيحاء ما يُدنيِ منهم القلوب ، ويُطوّع لهم رغائب الآخرين ومَوَدَّتَهم..

حتى إن تأثيرهم وهم غائبون، يكاد ينافس تأثيرهم وهم شهود وحاضرون . . ! ! !

"فالمسيح" عليه السلام، رآه والتقى به في حياته عشرات من الناس أو مئات ـ منهم من آمن به، ومنهم من كفر. لكنَّه منذ أن رحل عن دنيا الناس ، ومئات الملايين تدخل مجال جاذبيَّته طائعة، راغبة، مشتاقة . .

"والرسول"ﷺ غادر الدنيا إلى الرفيق الأعلى تاركًا عشرات الألوف من الذين رأوه، وعاصروه، وآمنوا به، واتَّبعوه .. لكنّه منذ رحيله ، ومئات الملايين كذلك تدخل مجال جاذبيَّته ، وتأنسُ بدينه ، وتُسارع إليه طائعة ، راغبة، مشتاقة . . ! !

* * *

إنَّ قوَّة الصدق، وعُرام الطاقة الكامنة فيهما قوَّة الجذب والتأثير لرسالة "الرسول"ﷺ و "شخصيته" لم تكُفَّا – عبر الأجيال – عن تقديم النموذج الذى قدمناه منذ أربعة عشر قرنًا من خلال الحوار المُشِعِّ بين "هرقل" و "أبي سفيان"!!

فكثير من الذين عاشوا على دين غير دين "محمد"ﷺ، رفضوا أن يخونوا الحقيقة، ويُزيفوا قول الحقِّ فيه.. ورفضوا أن

يُغالطوا أنفسهم، ويكتموا الحقَّ وهم يعلمون.. فمضوا – صادقين وشجعانًا – يصدَعُون بما عَرفوه عن عظمته، وصدقه، وإخلاصه.. ويصدَحون ـ فى كلمة فرح مغتبطة ـ بما بهَرهم من شخصيَّته المُضاءة والمضيئة.. لنقرأ مثلا لواحد من هؤلاء الذين أنجبهم عصرنا الحديث ـ ذلك هو "لامارتين"..

إنَّه ـ كما نعلم ـ يُعرَف عنه إيمان بالإسلام ولا برسوله ولا بقرآنه ـ ومع هذا فقد آمن بما احتشدت به شخصية "الرسول" من صدق، وبرٍّ، وسُموّ، ونُبل، ورحمة، وهُدى، وأمانة، وعفة، وذكاء، وخلُق، ومن اقتدار هائل على تحدِّى الباطل وكنس الضلال.. ومن إيمان عميق بالله، وتبتُّل للدعوة، وولاء مُفيض لقيم الحق، والعدل، والخير، والفضيلة، والجمال..!!

فصوَّر ذلك كلَّه في كلمات أعطت التعبير النهائىَّ لما يستطيع إنسان أن يُبدى من حبّ، وتوقير، وإجلال.. ها هوذا يتحدث ويقول :

"لم يظهر – قط – رجل مثل
"محمد"ﷺ عقَدَ نيَّتَهُ حول غاية أعظم

سُموًّا .. غاية فوق قدرة البشر.
تستهدف هدم الخرافات القائمة بين الخلق والخالق.. وإعادة الرب إلى الإنسان، والإنسان إلى الربّ.. وإصلاح المبدأ العقليّ السليم تجاه الألوهية في خَواء آلهة الوثنية الغلاظ المشوّهين . . ! !

يظهر قطّ رجل مثله قام في أقل وقت بثورة بالغة الشمول، والاستمرار. فنشر الإسلام في أقسام جزيرة العرب الثلاثة، وفتح لوحدانية الله بلاد فارس، وخُراسان ، وما وراء النهرين، والهند ، والشام، ومصر، وجميع القارة المعروفة بأفريقيا الشمالية، وكثيرًا من جزر البحر المتوسط، وأسبانيا، وقسمًا من بلاد المغول . . ! !

وإذا كان عِظَم المقصد، وضآلة الوسائل، واتساع النتائج مقاييس ثلاثة لعبقرية الرجل.. فمن ذا الذى يجرؤ على تشبيه أحد من عظماء العصر الحديث بـ"محمد"ﷺ ..؟!

إن أبعدهم صيتًا يصنع غير هزِّ السلاح، وزعزعة الدُّول.. ثمَّ يُقيموا -إذا كانوا قد أقاموا شيئًا- سوى سلطات ماديَّة مُنهارة. . ! ! !

صحيح أن "محمدًا"ﷺ هزَّ سلاحًا، وأزاح شرائع، وزعزع دُولا وأممًا وأباطرة . .

بَيْدَ أنَّه فوق ذلك أزاح أفكارًا، ومعتقدات، وغيَّر نفوسًا، وأقام على كتاب – أصبح كل حرف منه شريعة – جنسية وروحية لأمم شتى . . ! !

ثـم هـو قد طبـع هــذه الجنسيَّة
الإســلامية بسـمَةِ المقْــتِ للآلــهة
الباطلـــة، والحـــب لله الواحـــد
الأحد...!!

فيلسوف ، وخطيب.. رسـول،
ومُشَرِّع ، محارب ، وفاتح لأفكـار،
ومصلح لعقائد .. مُحْيٍ لعبادة بغير
صُورَ ولا تماثيل . . ! !

مؤسـس لعشـرين دولة دنيويَّة،
ومُنشيء لعالـم من الروح...!!
ذلكم، هو "محمد"ﷺ ..

فمن ذلك الرجل الذى يمكن أن
يكون أعظم منه، بكل المقاييس التى
تُقاس بها عظمة الإنسان . . ؟ !!

ما الذى جعل هذا الشاعر الفرنسى الكبير - مـن شعراء القرن التاسع عشر - يُرصِّـع كتابـه "السَّـفر إلى الشـرق" بهـذه الكلمات الوِضاء الحِسان، عن رسولٍ لـم يُعرف عنه إيمان بـه، ولـم تَصُدَّه مسيحيته عن الاعتراف بعظمته، وروعة أيامه..؟!

ما الذى هاج أشواقه إلى العظمة الإنسانية حتى رآها مكتملة ومزدهرة فى شخصيَّة رسولناﷺ، وفى أخلاقه، وفى دينه، فراح يحيِّيه تحيَّة مُوَلَّهٍ جَذلان..؟!

عليه صلاة الله وسلامه، وله تحياته وبركاته.. فهو رحمة اللّه للعالمين.

ولنقل مع "لامارتين" :

مَنْ ذلك الرجل الذى يمكن أن
يكون أعظم "منك"، بكل المقاييس
التى تُقاس بها عظمة الإنسان..!!

الفصل الثانى

رجل كلِّ العصور

إنَّ هذا الذى تلوناه، وطالعناه من كلمات الشاعر والمفكِّر الفرنسىّ الكبير "لامارتين" لم يكن وحيدًا بين الآراء والاعترافات التى أدلىَ بها فى إعجاب وافتتان وصدق رجالٌ كِثار، وكِبار، من الذين أمضَوْا حياتهم، وقضوا نحبهم، وهم خارج دائرة الإسلام.

بَيْدَ أنّ ثقافتهم واطِّلاعهم الوسيع المتراحب.. ثم احترامهم لانفسهم ولتفكيرهم.. كل هذا جعلهم ينحنون أمام عظمة الرسولﷺ ونقائه وتُقاه!!

ثم لم يستطيعوا صبرًا على اختزان إعجابهم، ولا على كِتمان الولاء الذى أفعم به وجدانهم وتفكيرهم..

ولاءُ مَن، ولمن..؟؟

ولاء أُناسٍ منصفينَ يدينون بغير دين محمد ﷺ .. أذهلهم منه خُلقُه، وطُهره، وروعة ثباته، وبطولة تضحياته، وصدقه مع ربه، ومع نفسه، ومع الناس.. ثم احترامه الوثيق والعميق للعدل، وللحرية، وللحق، وللخير، ولحقوق الإنسان.

* * *

ولم يكن الشاعر فى "لامارتين" هو الذى صاغ إعجابه المغتبط، وشهادته المتألّقة - فحسب - بل كان عقله يسابق وجدانه نحو هذا الإعجاب، وهذا الانبهار.

وكأىٍّ من عالِم غربىٍّ.. يعتمد فى تكوين أحكامه على المنطق، والتحليل، والمناقشة، والمقارنة.. يشكُّ ليعرف.. ويتوقّف قبل أن يحكم.. استطاع فى ضياء إخلاصه وصِدْقه، ونزاهة عقله وفكره ـ أن يصل إلى نفس النتيجة التى تؤكّد ندرة الوجود المحمدىَّ بين كل وجود وكل موجود..

هذا.. مثلا.. "روم لاندو" الذى عمل أستاذًا للدراسات الإسلامية والشمال ـ أفريقيّة، فى جامعة المحيط الهادى بكاليفورنيا.. يقول فى كتابه: "الإسلام والعرب":

كان "محمد"ﷺ تقيًا بالفطرة. وكان

من غـــير ريـــب مهـــيّأ لحـــــــمل
رســـــالة الإصـــلاح التى تلقّـــاها
فـــى رُؤاه .. وكـــان يملك إيمانًـــا لا
يلين بفكـــرة الإله الواحـــد. وعزمًـــا
راسخًـــــا على استئـــصال كـــل
أثرمن آثـــار عـــبادة الأصنـام التـــى
كـــانت ســـائدة بين الــــوثنيِّين
العرب.

"كانت مهمته هائلة ! !

"وإنَّ الزَّعـــــم القـــائـل بـــأن
فترات تلقِّيه الـــوحْيِ كانت نوبـــاتِ
صـــرعٍ زعـــمٌ خـــاطئٌ علـــى نـــحو
جـــلِيٍّ .. ذلك لأنّ مـــن يتـــعرّض
لهذه النوبات ، لا يمكـــن أن يكـــون
مالكًا وعـــيَه ومنطِـــقَه إلى حـــدِّ
القـــدرة عـــلى النُّـــطق بمثل المقـــاطع
المعـــقَّدة والعـــميقة التى نطـــــالع
الكثير منها فى القرآن ..

"إنّ الإخلاص الذى تكشّف
عنه محمد فى أداءِ رسالته، وما
كان لأتباعه وأصحابه من إيمانٍ
كامل بما نزل عليه من وحى
واختبار الأجيال والقرون .. كل
أولئك يجعل من غيرالمعقول اتهام
محمد بأيِّما ضربٍ من الخداع
والتلفيق .

"فلم يعرف التاريخ أى تلفيق
دينى متعمد-حتى حين
يكون صاحبه عبقريًا فى الدجل-
استطاع أن يعمر طويلاً.

"وإن الإسلام لم يعمِّر حتى الآن
مايّنيف على ألف وأربعمائة سنة،
فحسبُ بل إنه لا يزال يكسب فى
كل يوم أتباعًا جددًا".

* * *

حين وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه "رحمة للعالمين" لم

يكن هذا الوصف تحيّة من عند الله له فحسبُ.. بل كان كذلك إرهاصًا بما سيظفر به من البشرية في كل عصورها وأجيالها من حمد لا يطاوَل، ومجد لا ينصُل بهاؤه.. بما يحمل قلبه الكبير للناس من مرحمة، وبما يغذوهم به من نعمة الهدى وزاد الحقيقة.

وهكذا لم يكن الرسول ﷺ عظيم أيّام دون أيّام ولا عصور دون عصور . . لأنّه لم يكن داعية مرحلة بل داعية أبدا!! ولقد غدقت روافدة وينابيعه ـ عبر الأجيال والقرون ـ بكل طيّب وصادق وجميل من عذب القول وخالص العمل ، وجلال السلوك ! !

من أجل ذلك ، كان "الرجل" الذى تتألّق فيه معالى الأمور وتتألّق به ومعه القدوة الصالحة فى كل عصر وجيل!!

ومنذ جاء محمد ﷺ وإلى يوم الناس هذا. ثم إلى الأبد وما بعد الأبد ـ إنْ كان للأبد بعد ـ .. يجد كلُّ عصرٍ فيه وفى دينه قدوته ، وأُسوته.. وآماله المرجوّة.. وخلاصه المرقوب!!

هو إذن أمام كل زمان. وقائد موكبٍ متساوق من الناس والأيام والأحلام والمبادئ والرُّؤَى والقِيَم.. موكب لا يُؤْذن بانتهاء . .

ولقد أذعن لهذه الحقيقة وأذاع بها ـــ منصفون كثيرون من مفكرى أوروبا المنصفين..

وهذا واحد منهم يقول :

"لقد أظهر محمد عظمته
الحقيقية فى أنه لم يكن رجلَ
عصرٍ بعينه . . بل رجل كل
العصور.. ولم يكن محمد حالما..
بل عكف على ترسيخ أسس المجتمع
الذى رسمه لنفسه ..

"كان رجل دولة لا نظير له !!
فقد استطاع فى عصرٍ عمَّه التَّفسخ
الذى لم يكن ثمَّة أمل فى الشفاء
منه.. وبالخامات البشرية التى
وجدها بين يديه من حواريِّيه
وأصحابه .. أن يبنى دولة ومجتمعًا
على أسس عالميَّة رائعة" ! !

هكذا صدع المستشرق "موير" وصدح بهذه الشهادة الصادقة فى كتابه : "حياة محمد" رغم ما كان يخرج به أحيانًا

من استنتاجات مغلوطة ..!!

إنَّ شرف الحق وقداسته يفرضان على أُولى الألباب والنُّهىَ الاحترام لهما ، والاعتراف بهما . وبالتالى لمن وبمن يحمل راية الحق ، حانيًا عليه .. وداعيًا إليه ..

هكذا كان الرسول محمد ﷺ ولسوف يبقى ، فى الصَّدارة من هؤلاء الحانين والداعين .

* * *

تُرى من يكون هذا الرجل الفذّ ، والرسول العظيم .. وماذا كان سره المعجز والمهيمن ؟ ؟ أمَّا من يكون ؟ ؟ فسيأتى حديثه عما قليل . . وأمَّا سرّه الذى حبَّبه إلى الناس وزينّه فى قلوبهم ـ مكذّبين ومؤمنين .. راضين وكارهين .. ممَّن هم معه، وممَّن هم عليه. فأمر يبهَر الألباب حقًا .. وتحار فيه العقول ! !

فمِنَ الجاهليين الذين آمنوا به ، واتّبعوا النُّور الذى أُنزل معه.. إلى أولئك المفكّرين الكبار من أوروبا والغرب الذين لم يُسْلِموا معه .. وأسلموا واستسلموا لسرّه الجليل، وعظمته المتفوّقة، ومواهبه المتألّقة، بين أولئك وهؤلاء رؤية مشتركة لهذا السرّ، ولتلك العظمة وهاتيك المواهب .

وهى رؤية ترى المؤمنين مناسكهم وأسوتهم .. وترى غير المؤمنين ، ذلك الألَق الإنسانىَّ الذى يفجِّر فى أنفسهم التيِّه والخُيلاء ، إذ أنَّهم ينتمون لهذه البشريّة الباقية التى أنجبت ـ فيمن أنجبت ـ هذا الإنسان الممجَّد والعظيم ..

وليس إجلال المفكِّرين الغربيين له بأكثرَ دلالة من إجلال الذين عاصروه من العرب، وتلقَوْا منه كلمات الله ، وحملوا معه راية القرآن والإسلام .

وليس السرَّ الكامن وراء هذا الإجلال من كلا الفريقين إلاَّ تفسيرًا صادقًا للعُجب الذى يملأ أفئدتنا ويستجيش ألبابنا تجاه بساطة وعظمة وتأثير هذا الرسول الأمين .

ففى بيئته وقومه ، وزمانه ، حيث يقوم لرب العالمين ، بين قوم لهم فى بعض المواهب والخصائص شُموخ.. وإنَّهم لعنيدون فى طلب الدَّليل والبرهان على كلِّ دعوى وقضيَّة.. متعاظمون حتَّى حين تغشَاهم المسغبة ويُملِقون.. سادة لم يذلُّوا قطُّ لغازٍ ولا دخيل .

فى هذه البيئة اللافحة والمستعلية . وبين هؤلاء الناس المتغطرسين الغلاظ ، كيف فرضت شخصية الرسول ﷺ احترامها وجلالها ، حتى قبل أن يُبعث رسولا .. بل حتَّى

وهو شاب فى عمر أبناء بعضهم ، وأحفاد الآخرين ؟؟

ثم كيف أشرقت قلوبهم بنور ربها بعد بعثته ، وحملوا من الإيمان ما يبذّ كل نظير . . ؟ !

دعونى أنقلْ من كتَابى "رجال حول الرسول" هذه الكلمات والتساؤلات :

* ما الذى جعل سادة قومه يسارعون إلى كلماته ودينه — أبو بكر، وطلحة، والزبير، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص .. متخلّين بهذه المسارعة المؤمنة عن كلِّ ما كان يحيطهم به قومهم من مجد وجاه، مستقبلين ـ فى ذات الوقت ـ حياة تَمور مَوْرًا شديداً بالأعباء وبالصِّعاب وبالصِّراع . . ؟ !

* ما الذى جعل ضعفاء قومه يلوذون بحماه، ويُهْرَعون إلى رايته ودعوته وهم يبصرونه أعزل من المال، ومن السلاح.. ينزل به الأذى ويطارده الشر فى تحد رهيب دون أن يملك له دفعًا ؟!

* ما الذى جعل جبار الجاهلية ـ عمر بن الخطاب — وقد ذهب ليقطف رأسه العظيم بسيفه يعود ليقطف بنفس السيف الذى زاده الإيمان مضاءً رءوسَ أعدائه ومضْطَهديه . . ؟ !

* ما الذى جعل صفوة رجال المدينة ووجهائها يفِدون إليه ليبايعوه على أن يخوضوا معه البحر والهول، وهم يعلمون أنَّ المعركة بينهم وبين قريش ستكون أكبَر من الهول . . ؟ !

* ما الذى جعل المؤمنين به يزيدون ولا ينقصون ، وهو الذى يهتف فيهم صباحَ مَساءَ : ﴿ لا أَمْلِكُ لَكُمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرّاً، وَلاَ أدرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُم ﴾ . ؟ !

* ما الذى جعلهم يصدّقون أنَّ الدنيا ستُفتح عليهم أقطارها. وأن أقدامهم ستخوض خوضًا فى ذهب العالم وتمشى فوق تيجانه .. وأن هذا القرآن الذى يتلُونه فى استخفاء ستردده الآفاق عالِيَ الصَّدْح قوىَّ الرَّنين ـ لا فى جيلهم فحسب .. ولا فى جزيرتهم وحسب .. بل عبر جميع الزمان وجميع المكان . ! !

أجل .. ما الذى جعلهم يصدِّقون هذه النبوءة يحدِّثهم بها رسولهم ﷺ ، وهم الذين يتلفتون فلا يجدون أمامَهم وخلفهم، وعن إيْمانهم وعن شمائلهم سوى القيظ والسغب وحجارة تلفظ فَيْحَ الحميم، وشجيرات يابسة طلعها كأنَّه رُءوس الشياطين.؟!

* ما الذى ملأ قلوبهم يقينًا وعزمًا . . ؟ !

إنّه ابن عبد الله ! !

ومن لكل هذا سواه ؟ !

لقد رأوا رأى العين كلَّ فضائله ومزاياه .

رأوا طُهره، وعفته، وأمانته، واستقامته، وشجاعته.

رأوا سُموَّه وحنانه .. رأوا عقله وبيانه.. رأوا الشمس تتألق تألق صدقه وعظمة نفسه..

سمعوا نموَّ الحياة يسرى فى أوصال الحياة عندما بدأ محمدﷺ يفيض عليها من وحى يومه وتأمُّلات أمسه . . !

رأوا كلَّ هذا ، وأضعاف هذا ، لا من وراء قناع .. بل مواجهةً وتمرُّسًا ، وبصرًا وبصيرة . .

وحين يرى عربىٌّ تلك العصورِ شيئا ويفحصه فلا ينبِّئُك آنئذٍ مثلَ خبير . .

فهم أهل "القيافة والعيافة" يرى أحدهم وقع الأقدام على الطريق فيقول لك : هذه قدم فلان بن فلان..!!

ويشم أنفاس محدِّثه فيدرك ما تحت جوانحه من صدق أو بهتان .

هؤلاء رأوا محمدًا ﷺ وعاصروه منذ أهلَّ على الوجود وليدًا .

لم تخْفَ عليهم من حياته خافية .

كلُّ رُؤَاه ، كلُّ خطاه ، كلُّ كلماته ، كلُّ حركاته، بلْ كلُّ أحلامه وأمانيه وخاطرات نفسه كانت من أوَّل يوم أهلَّ فيه على الدنيا حقًّا للناس جميعًا .

لكأنَّ الله تعالى أراد بهذا أن يقول للناس هذا رسولى إليكم -وسيلته المنطق والعقل- وهذه حياته كلها مذ كان جنينا .

فبكلِّ ما معكم من منطق وعقل، افحصوها وحكِّموها.. هل ترون فيها شبهة .. ؟ هل تبصرون زيفًا..؟ هل كذَب مرَّة ؟ .. هل خان مرَّة ؟ .. هل هبط مرَّة؟.. هل ظلم إنسانًا..؟ هل كشف عورة .. ؟ هل خفَر ذمة ..؟ هل قطع رحِمًا .. ؟ هل أهمل تبعة .. ؟ هل تخلَّى عن مروءة ونجدة . .

هل شتم أحدًا ..؟ هل استقبل صنمًا ؟.

* * *

كما يقول "كارْليل" :

"كان ظهور محمَّدٍ ﷺ فى الحياة
ولادة من الظلمة إلى النور..!"

كان قومه على شفا حفرة من النار ، فأنقذهم منها .. ولا يزال ، وسيظل منقذًا لكلِّ الواقفين على شفا الحفر.. والسائرين -في عمى- نحو مهاوي الخطر !! وإنَّ الكلمات المضيئة والجريئة والمفيئة التي واجه بها قومه في الساعات الأولى من بعثته سيُطِلُّ بوجهها إلى العالم في شتى عصوره ودهوره وأجياله ..

وهذا ما يجعله "رجلَ كلَّ العصور" ..!!

فعندما أنبأه الله سبحانه أن وقته قد حان .. وأنَّ دوره قد جاء ليبلِّغ رسالته ونِذارته وبِشارته بادئًا بعشيرته الأقربين - صعد الصفا ، ونادَى يا معشر قريش . .

وراح القُرشيون يعدون ، ويقطعون الأرض وثبا نحو الأمين ! !

وتحلَّقوا حولَه ، وعيونُهم تتلهَّف ، وآذانهم تُعطِي السمع في سكون .

وأشار محمد ﷺ بيمينه ـ بارك الله يمينه ـ وقال :

"أرأيتم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم. أكنتم مُصدِّقِيَّ . . ؟

قالوا في صوت واحد : نعم واللات .. فما جرَّبنا عليك

كذِبًا . . ! !

قال : "فإن الله قد أرسلنى إليكم، لتعبدوه ولا تشركوا به شيئًا .. وإنّى نذير لكم بين يدَىْ عذابٍ شديد".

وتغشّى وجوهَ أكثرِهم تجهُّم ووجوم .. ولَوَّوْا أعناقهم التى بدَت وكأنَّها تحمل الأنيار المعرضة فى أعناق البقرات والثيران ! ! .

لكنهم لاذوا بصمتٍ . و لم تفتح بدائِهُهم عليهم بكلام..

وفجأة . انبعث أشقاها ! ! ومن أسفٍ أن كان هذا الشقىُّ عمَّه أبا لهب ، الذى قال : تبًّا لك . . ألهذا جمعتنا ؟ ؟

* * *

إن محمداً صلى الله عليه وسلم..

إن "رجل كل العصور" لايزال هناك قائمًا فوق الصفا أو فوق البطحاء ينادى الناس أنه نذير لهم بين يدى عذاب شديد.. يدعوهم إلى الخير ، ويناديهم إلى الحقيقة .. ويدلُّهم إلى خالقهم. ربِّهم وربِّ كل شىء ! !

إنه يرسِل فى الجموع من كلِّ جيل سَنا مبادئه وصدقه وكلماته الوضاء . . ! !

وينادى الذين تفصَّموا عن حقائق الدين ـ كل دين ـ إلى

الحقيقة التى لا انفصام لها ..

ولكلٌ من تلك الجمـوع والأجيـال "أبـو لهبهـا" يشـغَب بغثيث القول وأرذله ، ويقول للصوت الصادح بالحق : تباً لك سائر يومك . ألهذا جمعتنا ؟ !

أجـل إنَّ محمـداً ﷺ هنـا وهنـاك .. إنّـه معنـا ومـع الآخرين.. مع البشرية كلها منذ اصطفاه ربُّـه ليكـون للعـالمين نذيرًا ..

إنّه "رجل كل العصور"

منقذها ، وهاديها ، ومحطِّم أغلالهـا وسلاسـلها ومطلـق أرواح بنيها من الأسر ، وواضع الإصر عنها ..

ومنذ قال الله تعالى له :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ، وَمَنْ تَابَ مَعَكَ، وَلاَ تَطْغَوا . إِنَّهُ بِمَا تَعمَلُـونَ بَصِيْرٌ ﴾

﴿ وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا، فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ . وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ . ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ ﴾

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ،

وَزُلفًا مِنَ اللَّيْـل ، إنَّ الَحسَـنَاتِ
يُذْهِبْـنَ السَّيئـاتِ ، ذَلِكَ ذِكْـرَى
للذَّاكِرِينَ ﴾
﴿ وَاصْبِرْ فَـإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أجْـرَ
المُحسِنِيَن ﴾

سورة هود - الآيات ١١٢ - ١١٥

منذ تلقّى من الحكيم الخبير هذه الآيـات المباركـات مـن القُرآنِ العظيم وهو يعلم أن أول عناصر الاستقامة كما أُمر .. وعلى ما أُمـر..ألاّ يكـفَّ-ومـن تاب معـه- عن توجيه النـداء إلى النـاس ، وتذكـيرهم بأيَّـام الله ، ودعـوة المطَّرَحـين فـى الأمـاكن البعيـدة ، والمتاهـات السـحيقة إلى عـالم القُـرب مـن الله.. وإلى النور الذى لا ينطفىء ، والصحبـة التى لا تضـل ، والهُـدى الذى لاَ يزيغ . .

ولقد أدرك تمامًا .. لمـاذا أتـبّع الله أمـره لـه بالاسـتقامة على الأمر. والعزيمة على الرشد بقوله سبحانه ﴿ولا تطغَوْا﴾.

ذلك وأنّـه رحمـة الله للعـالمين وأنـه رجـلُ كـلِّ العصـور ونبيُّها ومعلّمُها ، لابدَّ أنْ تكون الوسيلة عنده فى طُهـر الغايـة ونبلها .. فى جمالها وجلالها .. فيكون مقامه دومًـا مقـام مـن

يدعو جُموعًا .. لا من يسوق قطيعًا !!

وكيف يوجِّه تعاليمه وقِيَمه .. وعقله وقلبه .. وهُداه ونُهاه إلى البشر أجمعين إذا لم تكن الدعوة والحكمة والموعظة الحسنة نهجه وسبيله . . ؟ ؟

وهل كان الفكر الأوروبيُّ المنصف في القرن العشرين، سيرى فيه "رجلَ كلِّ العصور" لو كانت قوَّة العضلات ، هي وسيلته إلى حَمل الناس على ما يرجوا لهم من نعمة .. وما يبشِّر به من مبادئ العدل ، والإخاء والرحمة . . ؟ ؟

هل رأينا ، أو سمعنا أحدًا يصف : الإسكندر ، أو جانكيز خان ، أو يوليوس قيصر ، أو نابليون ، أو هتلر ، بأنه "رجل كل العصور" . . ؟ ؟

ما كان ذلك ليكون ..

فالقوَّة الغاشمة لا يمكن لها بحالٍ أن تهَبَ الدنيا "رجل العصور" ، بل ولا رجلَ عصرٍ واحد .. إنَّما تقدِر العظمةُ وحدها على ذلك .. عظمة الشخص .. وعظمة المبادئ .. وعظمة الغايات .. وقبلها عظمة الوسائل ..!! وكذلكم كان الإنسان العطر ، والفريد الذى ختم الله به رسله وأنبياءه .

الرحمة المهداة ..

المبشِّر ، والنذير ..

والسراج المنير ..

ورجل كل العصور ..!!

الفصل الثالث

البُشـرَيَات بينَ يَديـهِ

لأنه رسول رب العالمين ، ولأنه المدَّخَر والمذخور ، ليختم الله به رسله ، ورسالاته ، ودينه ، فقد كان لابد أن تقدمه للمستقبل النُّبوءات الصادقة .. وتُمهد له المبشرات المتألقة ..!!

ولقد حكى القرآن الكريم طرفًا من تلك النبوءات .

وذلك حين قال :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى
الأمى الذى يجدونه مكتوبا
عندهم فى التوراة والإنجيل .
يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن

المنكر . ويحل لهـم الطيبـات .
ويحرم عليهم الخبائث . ويضـع
عنهـم إصرهـم والأغـلال التـى
كـانت عليهـم . فـالذين آمنـوا
بـه. وعـزَّروه . ونصـروه .
واتبعـوا النـور الذى أنـزل معـه
أولئك هم المفلحون﴾

سورة الأعراف ـ الآية ١٥٧

كمـا نقل إلينا ما قاله "المسيح" عليـه صـلاة الله وسـلامه لقومه:

﴿ وإذ قـال عيـسى ابن
مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول
الله إليكم ، مُصدقًا لما بين يدى
من التـوراة ، ومُبشرًا برسول
يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾.

سورة الصف ـ الآية ـ ٦

كذلك حدثنا القرآن الصدوق الحكيم عـن الموثـق الـذى أخذه الله على أنبيائه..وهو بالتالى مُلزم لأمم أولئك الأنبيـاء..

تلك الأمم التى تشهد بعثة سيدنا "محمد" عليه الصلاة والسلام وهاهو ذا الموثق العظيم :

﴿ وإذْ أخــذ الله ميثــاق النبيين، لــمـا آتيتـكـم من كتـاب وحكمـة، ثـم جـاءكم رسول مُصـدق لما معكم لتُؤمنـنَّ به، ولـتنصرُنَّه .. قال: أأقرَرْتُـم وأخـذتم عـلى ذلـِكُمْ إصـرى ؟ ؟ قـالوا : أقْرَرْنا .. قال: فاشْهدُوا ، وأنـا معكم من الشاهدين.. ﴾.

سورة آل عمران ـ الآية ـ ٨١

واضـح مـن تلـك الآيـات الكريمـة ، أن ثمـة "نبـوءات" صادقة.. و "مُبشرات" واثقة !!

وواضح كذلك أن الذين اشتركوا فى بثّ هذه النبوءات من الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ قد تركُوا لأتباعهم فـى كل العصور والأجيال وَصَاةً خالدة ، بأن يتبعوا هـذا الرسـول الكريم القادم ، إذا هُـم شـهدوا مَبْعثـه .. سـواء منهـم الذيـن

سيُعاصرونه ، أو الذين سيجيئون بعد عصره إلى أن يرث "الله" الأرض ومن عليها ..

ولقد اقتضى ذلك أن تكون جميع القنوات مُفتحة وموصولة بين الرسول وبين من سبقوه من إخوانه ـ عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام ..

وهكذا وجدنا الإسلام يرفُض كل إيمان به وبرسوله ما لم ينتظم الإيمان بكافة الأنبياء السابقين ، وبالكتب والأديان السماوية السالفة ، والمُنزلة من لدُنْ حكيم عليم !!

وفى الآيات الأوليات من القرآن العظيم ينَعتُ الله سبحانه وتعالى عبادة المؤمنين بأنهم :

﴿ الذين يُؤمنون بالغيب ،
ويُقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم
ينفقون .. والذين يؤمنون بما
أنزل ـ إليك ـ وما أنزل ـ من
قبلك ـ وبالآخرة هُم يُوقنون ﴾

سورة البقرة ـ الآيتان ٣ ، ٤

كذلك يدعوهم عزّ وجَلّ إلى أن يحملوا فى أفئدتهم إيمانًا صادقًا ، وولاءً مُطلقًا لهذه القضية :

﴿ قـولـوا : آمنا بالله ، وما
أُنـزل إلينـــا، ومـــا أُنـــزل إلى
إبراهيم، وإسماعيل ، وإســـحاق،
ويعقوب، والأسباط ومـــا أُوتـى
موسى وعيسى وما أوتى النبيـون
من ربـهـــم .. لا نُفرِّق بين أحد
منهم، ونحن له مسلمون ﴾

سورة البقرة الآية - ١٣٦

هنـاك - إذن - اعـتراف مُتبـادل بين الرسول "محمـد" ﷺ وبين إخوته الســابقين . وبين الإســلام وما سَلَف من شــرائع أو (أديان) ..

وهنـاك -كذلـك- عهـــد مُشـــترك بـين جميـع الأمـــم والشعوب التى اختصها الله برحمته ، حين أرسل فيهم وإليهـم مـن يزكيهـم ، ويهديهـم إلى صـراط الله العلـى الحميـد مـــن الأنبياء والمرسلين ..

ولقد فازت "الأمة المسلمة" فى كـل عصورهـا وأجيالهـا بشرف الحفاظ على هذا العهد ، والوفاء به ، والولاء له ..

فلا تجد "مسلمًا" واحدًا ، خلال الأربعة عشر قرنًا التـى

عاشها الإسلام منذ أهَلَّ وبَزغ ..

ولن تجد "مسلمًا" واحدًا ، فيما سيأتى من قُرون، وأزْمنة، وأجيال ، يكفر برسول واحد من المرسلين السابقين، أو يكفُر بكتاب مُنزَّل واحد من الكتب السماوية التى بقيت بلا تزيُّد أو تحريف .. مادام قد آمن با لله ربًا ، وبالإِسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً ..

وحين أُسْأل عن أعظم خصائص الإِسلام ، أجيب : إِنها "عالميته" ! !

فهو "عالَمىٌّ" النزعة ، والاتجاه ، والمنهج ..

شهد له بذلك ربه ومُنزِّله حين نادى رسوله :

﴿ وما أرسلناك إِلاَّ رحمة
للعالمين ﴾.

وحين حمَّله مسؤلية شُمُول الدعوة ، وعالميَّة البلاغ، قال :

﴿ قل : يا أيها الناس،
إنى رسول الله اليكم جميعًا﴾
سورة الأعراف ـ الآية ١٥٨

وبينما قال ربنا سبحانه عن الرسل السابقين :

﴿ ولقد بعثنا في كل
أمة رسولاً﴾

سورة النحل ـ الآية ٣٦

نجده يقول للرسول "محمد" عليه الصلاة والسلام :

﴿ وأرسلناك للناس رسولا﴾

سورة النساء ـ الآية ٧٩

وحين تحدث الله في كتابه الكريم عن الأمم ومُرْسليها قال : ﴿ وإن من أمَة إلاَّ خلا فيها نذير ﴾

سورة فاطر-الآية ٢٤

وهذا مصداق لما سبق أن ذكرنا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

"ما من نبي إلاَّ بُعث لقومه
خاصة. إلاَّ أنا.. بعثت إلى
الأبيض، والأحمر، والأسود".

وكثيراً ما كان - عليه الصلاة والسلام- يقول : "أنا دعوة أبي إبراهيم".. مشيرًا بهذا إلى موقف الخليل حين فرغ ومعه ابنه "إسماعيل" عليهما السلام ـ من بناء الكعبة ، إذ اتجه إلى الله في ضراعة واثقة ، تقيَّة ، ودعا :

﴿ ربنا وابْعَثْ فيهم
رسولا منهم يتلو عليهم آياتك،
ويُعلمهم الكتاب والحكمة،
ويزكيهم إنك أنت العزيز
الحكيم ﴾

سورة البقرة ـ الآية ١٢٩

والمقصود ذرية إسماعيل.

ولقد تقبل الله ضراعته واستجاب دعاءه .. وسارع إليه ببُشراه إنَّه ـ سبحانه ـ قد سمع وأجاب !! كما سارع إليه بما أخذ على نفسه ـ جل جلاله ـ من عهد أن يحقق لخليله "سيدنا إبراهيم" ما يرجو ويتمنى ..

و"العهد القديم" من الكتاب المقدس ، هو الذى ينقُل إلينا هذا الوعد ، وذلك العهد فى هذه الفقرة من سِفْر التكوين :

"وقال الربُّ لإبرام ـ يعنى
إبراهيم ـ اذهب من أرضك،
ومن عشيرتك ، ومن بيت
أبيك إلى الأرض التى أُرِيكَ،

فأجعلك أمَّة عظيمة.. وأبارك،
وأُعظم اسمك، وتكـون بركـة،
وأبـارك مُبـاركيك، ولاعِنـك
ألْعَنه .. وتـتبـارك فيك جميـع
قبائل الأرض" ..!!

سفـر التكـوين ـ الإصحـاح الثـانى عشـر ٢،٣

من هى قبائل الأرض وأقوامُها الذين بُورِك بينهم "سيدنا إبراهيم" عليه السلام . . ؟ ؟

مَن ـ غير المسلمين ـ يُصلون عليه ويسلمون ، ويباركون اسمه وذِكراه فى كل صلواتهم آنـاء الليـل ، وأطـراف النهـار، قائلين :

"اللهـــم صـلِّ على محمد
وعلـى آل مـــحمّدٍ كمـــا
صلـــيت على إبراهيـــم وعلى
آل إبراهيم .
"وبارك علــى محمدٍ، وعلــى
آل محمـــد ،كما باركت علـى
إبراهيم، وعلى آل إبـراهيـم،

إنك حميد مجيد" ؟ !

إن"النُّبوءة" التى أسلفناها، والمنقولة عن سِفْر من أسفار التوراة ، هو "سفر التكوين" لتصِلَنا بنبوءات أُخر ، زخرت بها التوراة والإنجيل ، حتى فى النسخ القائمة اليوم ..

ولقد تتبع طرفًا من هذه النُّبوءات ، وتناولها بتعليقه الذكى المضىء ، والفيلسوف الهندى المسلم "مولانا محمد على" فى كتابه القيِّم : "حياة محمد ، ورسالته" ترجمة الأستاذ "منير البعلبكى" وإِنه ليسعدنى ، ويسعد القراء معى أَن نصحبه فى حديثه هذا .

"إِن الكتب السماوية كلها تشتمل على نُبوءات عن مجىء الرسول .. وإِنه ليبدو أن العناية الإِلهية شاءت أن تصْهر الشرائع الدينية المختلفة فى عقد واحد ، ينتظمها كلها .. وذلك كى تصهر الإِنسانية فى أُخوَّة كونية ، فأرسلت ـ أى العناية الإِلهية ـ نبيًا ورسولاً يحمل رسالة إِلى الجنس البشرى كله ..

"ولقد احتفظ العهد القديم والعهد الجديد ـ هذان الكتابان المقدَّسان ـ على نحو سليم بعدد من النبوءات عن مجىء الرسول "محمد" عليه صلاة الله وسلامه .. ففى سفر

التكوين يقول الله لخليله إبراهيم :

"وأما إسماعيل، فقد سمعتُ لك
فيه.. ها أنا ذا، أُباركه، وأثَمره،
وأُكثَرة كثيرًا جدًا.. اثنى عشر
رئيسًا يلدْ، وأجعله أمة كبيرة "

سفر التكوين الإصحاح السابع عشر ٢٠

"فهنا أعطى الوعد الخاص بإسماعيل وذريته بالطريقة نفسها التى أعطى الوعد الخاص بإبراهيم وذريته ..

"ثم هناك نُبوءة أخرى من خلال الوعد الذى وعد الله إبراهيم إيَّاه .. ها هو ذا ! :

"وأُقيم عهدى بينى وبينك،
وبين نسْلك من بعدك فى أجيالهم
عهدًا أبديًا، لأكون إلاها لك
ولنسلك من بعدك.. وأعطى لك،
ولنسلك من بعدك أرض غُربتك
كل أرض كنعان ملكًا أبديًا لك،
وأكون إلاههُم"

سفر التكوين الإصحاح ١٧ : ٧ ، ٨

"وهـذه علامـة منظـورة ، تُرينـا مـن هـم الآن "الورثـة الحقيقيون" للوعد الالهى لإبراهيم عليه السلام .

"فمن الحقائق التاريخية أنه ما إنْ جاء الرسـول "محمـد" حتى دخلت "أرض الميعاد" فى حوزه المسلمين الذيـن بسـطوا سلطانهم عليها طوال القرون "الأربعة عشر الماضيـة" .. ولقـد كان الغرض الأساسى للحروب الصليبية انتزاع "أرض الميعـاد" هذه من أيدى المسلمين .. ولا ريب فى أنها ضاعت من أيدى المسلمين مؤقتًا "بعض الوقت" ولكنها سرعان ما أُعيـدت بعـد فترة وجيزة .. وإذا كان قد قُدِّر لها أن تضيع منهم فيما بعـد . فلـن يستمر ذلـك طويـلاً .. وفـاء بـالوعد الـذى وعـده الله إبراهيم..

"أمّا النبوءة التالية المعلنة بمجـىء الرسـول الكريـم "محمـد" فقد جاءت على لسان "موسى" عليه السلام :

"أُقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم
مثلك، وأجعل كلامى فى فمـه ..
فيكلمهم بكل ما أُوصيه به"

سفر تثنية الاشتراع الإصحاح ١٨ : ١٨

"وهذا واضح وضوح الشمس فى رائعة النهار !! فإن أيًا

من الأنبياء الإسرائيليين . الذين جاءوا بعد "موسى" فى تعاقُب مُتطاول ، حتى مجىء "يسوع" . لم يدع أنه النبى الموعود بهذه النبوءة .. ولأسباب جليّة لم يكن فى ميسور خلفاء "موسى" عليه السلام أن يكونوا مثله ، لأنهم ما جاءوا إلاّ لتنفيذ شريعته ليس غير .. وكان أمر "النبوءة" معروفًا لدى الخاصة والعامّة من اليهود الذين انتظروا جيلاً بعد جيل ، ظُهور نبى مثل "موسى" ويؤيدون هذا تأييدًا كافيًا ذلك الحديث الذى دار بين "يوحنا المعمدان" ، وأولئك الذين وفدوا عليه ليسألوه : كما يروى سفر يوحنا :

"من أنت . . ؟ ؟

"المسيح أنت ؟ ؟

"قال : لستُ أنا ..

"إيليا أنت ..

"قال : لست أنا ..

"ذلك النبى أنت ؟ ؟

"فأجاب : لا ...!!

سفر يوحنا الإصحاح الأول : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١

"وهذا يظهر فى يقين ان اليهود كانوا يترقبون ظهور

ثلاثة أنبياء مختلفين : أولهم "إيليا" الذى اعتقدوا أنه سيظهر بشخصيته كرّة أخرى .. وثانيهم "المسيح" وثالثهم "نبىّ" ذو شهرة عظيمة إلى درجة رأوا معها أنه من غير الضرورة نعته بأى وصف مُميّز ..!! لقد كان قولهم : "ذلك النبى" كافيًا للدلالة على من يعْنون .. وهكذا كان مدى الشيوع والذيُّوع اللذيْن حظيتْ بهما-بين اليهود- نُبوءة "موسى" فيما يتصل فى ظهور نبىٍّ مثله .

"ولقد تحققت هذه النبوءات فى شخصىْ "يسوع ، ويوحنا" .. فقد أعلن أولهما أنه : "المسيح" وأعلن ثانيهما أنْه بُعث فى روح "إيليا" .. ولم يدّع أحد منهما أنه النبى الموعود المماثل لموسى .. بل ولم يعتبرهما أحد من الذين آمنوا بهما ـ ذلك النبى الموعود ..!!

"وهكذا ظلّت نُبوءة سِفر"تثنية الاشتراع" حول نبى مثل موسى "غير محققة بقدر ما يتعلق الأمر بالإسرائيليين .

"وإذا قلّبنا صفحات تاريخ العالم لم نجد أى نبى غير "محمد" عليه الصلاة والسلام أعلن أنه النبى الذى تنبأ "موسى" بظهوره ..

" والوقائع تؤيد هذا التفسير ، فقد كان "موسى"

صاحب شريعة .. وكذلك كان "محمد" صلوات الله وسلامه عليهما .. وليس بين الأنبياء الإسرائيليين الذين خلفُوا "موسى" نبى واحد جاء بشريعة جديدة .. ومن هنا ، كان الرسول الكريم "محمد" بوصفه النبى الوحيد الذى أعطى الناس شريعة ، هو وحده المماثل لموسى .. يُصدِّق هذا القول الله سبحانه في قرآنه الكريم :

﴿ إنّا أرسلنا إليكم رسولاً
شاهدًا عليكم، كما أرسلنا إلى
فرعون رسولاً ﴾

سورة المزمل – الآية: ١٥

"إن عبارة (أقيم لهم رسولاً من بين إخوتهم) التى جاءت على لسان موسى عليه السلام ، لتُلقى ضوءًا جديدًا على هذه الحقيقة .. إذ معنى ذلك أن النبى الموعود لن يجيء من بين الإسرائيليين أنفسهم .. بل من بين "إخوتهم" من ذرية "إسماعيل" .

"وهكذا ، فإن نبوءة "سفر تثنية الاشتراع" السالفة ، تُشير بما لا يحتمل اللبس إلى الرسول الكريم "محمد" ﷺ الذى وجدت فيه مصداقها . . ! ! !

"وثمة نُبوءة أخرى ، نقع عليها فى تعبيرات لا تقل وضوحًا وجلاء .. وهى موجودة فى نفس السَفر "تثنية الاشتراع" حيث يقول :

"جاء الربُّ من سيناء ..
وأشرق لهم من شاعير..وتلألأ من
جبل فاران .. وأتى من ربوات
القدس"..

فالمجىء من "سيناء" يشير إلى ظهور "موسى" .. والإتيان من "ربوات القدس" يشير إلى ظهور "يسوع" ، إذْ تلقى هذان النبيان النداء الإلهى فى هذين الموضعين .. أما "فاران فمن المسلم به أنها الاسم القديم لأرض" الحجاز حيث ظهر "محمد" عليه الصلاة والسلام من بين حفدة "إسماعيل" !

"وليس ذلك فحسب . بل إن ثمَّة نُبوءة رابعة ، تنصُّ صراحة على أن أرض النبى الموعود ، هى بلاد العرب .

إذ يقول "سفر أشعيا" !

"وحيٌ من جهة بلاد العرب
فى الوعْر من بلاد العرب تبيتين
يا قوافل الدَدانيين ..

"هاتُوا ماء لملاقاة العطشان ،

يا سُكَّان أرض تيماء ..

"وافُوا الهارب بخبزه ، فإنهم

من أمام السيوف قد هربوا .. من

أمام السيف المسلُول ، ومن أمام

القوس المشدودة ، ومن أمام شدة

الحرب" .

سفر إشعيا الإصحاح ٢١: ١٣، ١٤، ١٥

"إن لفظة .. بلاد العرب .. قبل كل شيء ذات مغزى كافٍ . ثم أن الإشارة إلى من هاجر ، تُلقى ضوءًا جديدًا على المقصود بالنبوة .. فتاريخ العالم لم يُدَوِّن غير هجرة واحدة قُدِّر لها أن تكتسب أهمية الحدث الحاسم .. وهى هجرة الرسول من مكة إلى المدينة .. حيث بدأ التقويم الإسلامى ، وحيث استهل فصل جديد فى تاريخ الإسلام .. أو على الأصح فى حضارة العالم كله ..!!

"وعبثًا تُقلب صفحات التاريخ التماسًا لهجرة أخرى ، تمحصت عن نتائج فى مثل هذه الخطورة ، وبُعد الأثر .. فإذا أضفنا إلى هذا نص النبوءة الصريح على "بلاد العرب"

بوصفها مسقطًا لرأس النبى الموعود ، لوقفنا أمـام دليل لانزاع فيه على أن النُّبوءة المذكورة تشير إلى الرسـول "محمـد" صلى الله عليه وسلم ..!!

"وهناك نُبوءات أخرى كثيرة أطلقها الأنبياء اليهود مثـل "داود ، وسليمـان ، وحقَـاى" وغـيرهم . ولكننـا رغبـة فـى الإيجاز ، سنختار واحدة منها ، هى التى أطلقها آخـر الأنبيـاء الإسرائيليين ، وهو "المسيح" حيث يقول :

"إن كنتم تحبوننى ، فاحفظوا
وصاياى.. وأنا أطلب من الآب،
فيعطيكم "مُعزّيًا" آخر، ليمكـث
معكم إلىالأبد.. رُوح الحق الذى
لا يستطيع العالم أن يقبله ، لأنـه
لايراه ولا يعرفه "

سفر يوحنا الإصحاح ١٤،١٥،١٦،١٧

ثـم تقول النُبوءة :

"وأما المُعزّى، الروح المقدسة
الذى سيرسله "الآب"باسمى، فهو
يعلمكم كل شىء . ويذكركم

بكل ما قلته لكم" .

وفى موضع آخر فى نفس السَفر المذكور تقول النبوءة على لسان السيد المسيح :

"إن لى أمورًا كثيرة أيضًا،
لأقول لكم.. ولكن لا تستطيعون
أن تحتموا الآن .. وأما حين يأتى
ذاك.. روح الحق.. فهو يرشدكم
إلى جميع الحق" !!

سفر يوحنا ـ الإصحاح ١٦، ١٢، ١٣

"هذه الكلمات المنبَئة ، تُبشر فى صراحة كاملة بمجىء نبى آخر بعد "يسوع" عليه السلام ..

"ولقد أرهق اللاهوتيون النصارى أنفسهم ولايزالون ابتغاء العُدول بها عن قصدها بحيث تطبق على "الروح القدُس" ..؟؟ وهذا منهم يشكل استنتاجًا غير صحيح .. إذ أن للنبوءة بقية يقول فيها "السيد المسيح" : أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لايأتيكم "المُعزّى"

والعهد الجديد يذكُر أن "يُوحنَا" كان مُفعمًا بالروح القدُس، ويذكُر أن "المسيح" تلقَى الروح القدُس على شكل حمامة ..

"وإذن ، فلمن تُشير هـذه الكلمـات : إن لم أنطلـق، لايأتيكم المعزّى . . ؟ ؟

"إنها قطعًا لاتُشير إلى "الروح القدس" إذْ من التّجديف ، أو يكـاد ، الذهـاب إلى أن "يسوع" لم يكن مُـزودًا بـروح القدُس !!

"ولاريب فى أن كلمتى "الروح القدُس" اللتين وردتا فى النّبوءة ، إنما أُريد بهما أن تُشير إلى أن النبـى المنتظـر والموعـود سيكون متحدًا مع "الروح المقدسة" .

"وقول النّبوءة عن الرسـول القـادم "ليمكـث معكـم إلى الأبد" يدلُّ على أنه لـن يكـون بعـد النبـى الموعـود نبـى آخـر جديد . . ! !

"وهذا هو ما يقوله القرآن الكريم عن "الرسول محمد"

﴿ ما كَـانَ محمدٌ أبَـا أحـدٍ
منْ رجَـالِكُـمْ، وَلَكِـنْ رَسُـولَ
اللهِ، وخَاتَمِ النبيِّين، وكَـانَ اللهُ
بكـلِّ شيءٍ عَلِيماً ﴾ .

سورة الأحزاب ـ الآية : ٤٠

"وهـذا أيضًـا مـا يقولـه "القـرآن الكريـم" عـن رسـالة

"النبى محمد" عليه صلاة ربنا وسلامه :

﴿ اليومَ أكملْتُ لَكُمْ دِينكُمْ،
وأَتممْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِى، وَرَضِيْتُ
لَكُمْ الإسْلاَم ديناً ﴾

سورة المائدة ـ الآية : ٣

"ثم إن النبى الموعود تصفه النبوءة بأنه "رُوح الحق" والقرآن المنزل على "محمد" يزكيه بقوله الكريم : ﴿قل جاء الحق﴾ .. وهكذا ، فإن دعوات "إبراهيم ، وإسماعيل" ونُبوءات "موسى وعيسى" وغيرهما ، قد تحققت فى شخص الرسول الكريم "محمد" عليه الصلاة والسلام إلى أبد الأبدين..!!"

إذَنْ لم تكن شهادات الكبار من مفكرى أوروبا فى القرنين الأخيرين ، الشهادات التى سُقْنا فى فصلٍ سابق طرفًا منها .. أقول : إنها لم تكن وحدها الإشارات الضَوئية على طريق الذين عرفوا ، والذين سيعرفون عظمة رسولنا الكريم ، وعظمة دينه ورسالته ودعوته !!

بل كانت هناك ، قبل قُرون مديدة وكثيرة أصواتُ حق، ونداءات صدق تهتف بهذا النبى البشير ، والنذير ، والسرَاج

المنير تُنادى أيامه ، وترفع أعلامه ..!!

كانت هناك دعوات "إبراهيم واسماعيل" ونُبوءاتهما.. وكانت هناك نبوءات "موسى وعيسى" .. وهى جميعًا تلقّوْها عن الله الذى يصطفى من رُسله من يشاء.

هى ـ إذَنْ ـ كلمات الله .. فهل وعاها وحفظها وامتثلها ، أتباع الرسولين الكريمين ؟ ؟ أم ارتابوا . فهم فى ريبهم يتردَدون ؟ ؟

ألاَ إنَّ "المسيح عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ لَيُنادى هؤلاء وأولئك :

"طوبى للذين يسمعون كلام الله ، ويحفظونه" ..!!

الفصل الرابـع

الرجـل الكـامن فى الطفـل

ذات يوم ، وهو نائم تحت ظل شجرة وحيدة ويتيمـة .. أقبل عليه أطفال من لدانه واترابه ، يدعونه بعد أن أيقظوه مـن مرقده إلى المسير معهم للتفرج على زامر هناك فى شـارع من شوارع مكة . يُغنـى علـى مزمـاره غنـاء يطـرب لـه الولـدان، وبدلا من أن يهش الطفل للنبأ السعيد، والدعوة المبهجة ، هـز رأسه فى تأبٍّ وإعراض ، وقال لهم : "أنا لم أخلق لهذا" ..!!

ولعل إجابته هذه كانت نتيجة تجربة سالفة لـه .. فـذات ليلة أو ذات يوم ذهـب يسعى إلى سامر ، فيه الناس يسمُرون.. لكنه لم يكـد يبلغـه ويأخـذ مكـانه بين المتحلقـين، حتـى راح فى نـوم عميق ، استيقظ منه بعد حين ليجد المكان الذى كان

غاصًا ومكتظًا قد خلا من رواده ، والسُمار قد رحلوا .. وآب إلى دار عمه دون أن يسمع ما سمع الآخرون من زمر ولهو ..!!

تُرى هل طوَّف "الطفل" بخواطره حول هذا الذى حدث له ..؟ وهل استنتج منه أمرًا ..؟

وهل كان المعنى الذى التمع فى خاطره ، ثاويًا أمام موقفه الرافض لرغبة أترابه ، ووراء اعتذاره الرقيق الذى عبَّر عنه بكلماته التى كانت "رجالا" وذلك حين قال : "أنا لم أخلق لهذا " ..؟!

يبدو إن ذلك كان كذلك ..

فسنلتقى به ، بعد أن اختاره الله رسولا ، يستدعى من ذكريات طفولته ذلك المشهد الأول . بل ويُفسِّر بأن الله سبحانه هو الذى ألقى عليه النوم ، حتى لا يقتحم سمعه ما كان ثمة من غناء ماجن أو زمر لاهٍ. لم تُخلق له أذناه ، كانتا على موعد مع صوت آخر ، وكلمات أخر ، سيتنزل بها من لدن حكيم عليم شيخ الملائكة "جبريل الأمين" عليه السلام..!!

* * *

تحت إحساس عجيب ، ونادر النظير ، قال الطفل المبارك كلماته المرهصة والمضاءة بنور غيب لايعرفه ولايراه .. وان كان يُحسه على نحو جلى .. قال كلمته المشرقة بنور ربها : "أنا لم أخلق لهذا" ..؟؟

وقبل هذه الطفولة كان ميلاد ..

ولن نقف طويلا أمام ما نقلته الأنباء ـ وربما الأساطير أيضًا ـ عن الخوارق التى صاحبت مولده .. فقد جرت عادة الناس ، ولاسيما رُواة أخبار العظماء من البشر أن يملأوا الفراغ المحيط بمهد الوليد بالكثير الكاثِر من الخوارق والحكايات ، ظانّين أنهم بهذا يرفعون من قدر هذا العظيم أو ذاك .. وأنهم بهذا يُبوّئونه مكانًا عليًا .. مكان الذى لم يجىء بقية الناس ، بل جاء فى موكب حافل من مقادير الله الذى اختاره على علم واجتباه واصطفاه ..!!

وأمام "محمد بن عبد الله" لانجد إنسانًا تحتاج عظمته إلى التماس خوارق تُزكيها ..

فغدًا ، حين تكبر شخصية "الطفل" وتنمو .. ويتسلم من يمين الله ـ وكلتا يديه يمين ـ راية الرسالة والدعوة ، سنجد آنئذ ، إن معجزة "محمد" صلى الله عليه وسلم بعد القرآن ،

هى "محمد ذاته" .!!

وإذن ، فلا حاجة به إلى عُطور يُضمَّخ بها ميلاده .. فهو نفسه العطر ، وهو العبير أطيب العبير ..!!

بيد أن هناك حدثًا جليلا قد زامن مولده .. وهو جدير أن يُحسب فى عداد الخوارق من غير تكلُّف أو اعتساف .. ونحن نذكره ، ونقضى معه بعض الوقت . لا لشىء إلاّ لأنه ارتبط بحياة هذا الوليد المبارك ـ حتى لقد صار تاريخ مولده مقترنًا بذلك الحدث .. فيقول التاريخ دائمًا : "إنه وُلد عام الفيل" ..

ولعام الفيل قصة تُروى ، باعتبارها ـ تاريخًا ـ صادقًا ، وليست أسطورة نمقها الخيال ..

والواقعة- كما يرويها "ابن هشام" تتلخص فى أن "أبرهة الأشرم" الذى كان واليًا على اليمن لنجاشىِّ الحبشة أراد أن يصرف الناس عن الكعبة ، فبنى كنيسة فى أجمل زينة، وأروع معمار . ثم كتب إل "النجاشى" يقول له : "إنى قد بنيت لله أيها الملك كنيسة ، لم يُبن مثلها لملك قبلك.. ولستُ بِمُنْتهٍ حتى أصرف إليها حجيج العرب ..!!

وترامت أنباء هذه الكنيسة ، وكتاب أبرهة إلى

النجاشى، هذا الكتاب الذى فضح نوايا أبرهة الخبيثة والضالة .. ترامت هذه الأنباء إلى العرب فى "مكة" .. وأسرَّ واحد من أهلها أمرًا .. ورحل إلى "صنعاء" ليُمضى ما أسرَّ ، ويُنجز مانوى !!

وذات يوم ، دخل راعى الكنيسة التى بُنيت من الرخام المجزَّع ، والحجارة المنقوشة بالذهب .. دخل كنيسة أبرهة هذه .. فإذا منخراه يمتلآن برائحة كريهة إلى حد لا يُطاق .

ولابد أنه أغلق منخريه تمامًا ، حين راح يجُول فى رحاب الكنيسة باحثًا عن مصدر هذه الرائحة الخبيثة .. وأخيرًا وجدها ..

وضرب صدره بيده ، وهو يقول : لقد فعلها المكّىُّ اللعين الذى تركته يبيت هنا الليلة ، رأفة به واشفاقًا عليه ..

ولم يشأ أن يزيل الخبث المكتوم حتى يُطلع "أبرهة" على هذا الحدث ..!!

وحين علم أبرهة أن الفاعل رجل من عرب مكّة جاء ليقدم إليه هذه الهدية المتواضعة "!!" جزاءً وفاقًا على نواياه العدوانية تجاة الكعبة ، وتجاة بيت الله الحرام ..

حين علم بهذا ، قرر فى لحظة غضب وسفاهة أن يغزو

"مكة" ويهدم كعبتها وبيتها الحرام !!

وفى طريقه وجيشه معه إلى مكة خرجت له قبائل من العرب، كانت تقيم بأرض خثعم ، لتردَّه عن الكعبة والبيت الحرام، فهزمها ، وأسر شيخها وقائدها ..

وعند وصوله الطائف خرج له رجال "ثقيف" وعانفُوه القتال .. لكنه هزمهم ، وانطلق كالإعصار نحو "مكة".. وعند مشارفها أرسل مبعوثًا حمَّله رسالة إلى سيد البلد وشريفها، يخبره فيها أنه لم يأتِ لحرب الناس .. إنما جاء لهدم هذا البيت.. وليس به حاجة إلى دمائهم إذا لم يعرضوا له بحرب !!

وكان قد سبق رسوله هذا ، جماعة من فرسان جيشه حيث انتهبوا ما وجدوا من مال وإبل .. أصابُوا فيها مئتى بعير لسيد قريش "عبد المطلب بن هاشم" الذى دعاه أبرهة للقائه..

ولم يكد يراه حتى أجلّه ، وأعظمه ، وأكرمه .. وسأله عن طريق ترجمانه أن يطلب ما يشاء !!

وأجاب سيد قريش : إن حاجته أن يردَّ الملك للناس ما انتهبه جنوده ، ومنها مائتا بعير له .

وحين رأى دهش "أبرهة" من اهتمامه بأبله وإبل

الآخرين، دون أن يذكر البيت الحرام بكلمة، أطفأ دهشته هذه بكلماته المأثورة : "أما الأبل ، فهى لى .. وأما البيت، فله رب يمنعه ويحميه" ..!!

ورجع "عبد المطلب" إلى قومه ، داعيًا إياهم أن يخرجوا من "مكة" وأن يتحرَّزُوا فى شعف الجبال والشُعاب .. ثم مضى إلى الكعبة وأمسك بحلقة بابها ، وراح ينادى ويُناجى ربه الذى كان "الحُنفاء" يبشرون به ويهجُرون الأصنام إليه، ويقول :

لاهُمَّ إن العبد يمنع
رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب
وعابديه اليوم آلك
لايغلبّن صليبهم
ومحالهم أبداً محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا
فأمر ما بدا لك

قال ذلك "عبد المطلب" سيد قريش ، وجَدُّ "محمد" ﷺ الذى ستشهد هذه الأيام . ميلاده .. ثم انطلق ومن معه من

قريش إلى شعف الجبال مُتحرِّزين فيها ، ومنتظرين أمر الله فيهم وفى بيته الحرام ، وفى هذا الغازى العنيد والأثيم ..!!

كان يتقدم جيش أبرهة فيل ضخم يُثير الرعب والفزع فى الأنفس والعزمات ..

وما لبث الفيل أن برك فى هجوع وخُشوع ، وراحوا يضربونه فى عُنف لكى ينهض فأبى .. وأدخلوا المحاجن فى مراقه وأسفل بطنه وهو يأبى ..!! ثم أداروا رأسه صوب اليمن فقام يُهرول .. ووجهوه ناحية الشام فانطلق مهرولاً .. ثم ناحية المشرق فكان أسرع هرولة .. ثم عادوا به صوب البيت الحرام فبرك وأخلد إلى الأرض وكأنما شُدت قوائمه إليها بسلاسل مُوثقة غِلاظ ..

وفجأة ملأ الفضاء فوق رءوسهم بأفواج من طير أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل .. لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وسقط صريعًا فوق التراب والرمال !!

وولَّوْا هاربين يبتدرون الطريق التى جاءوا منها ..

وأمامهم قائدهم التعس ـ أبرهة الأشرم ـ الذى لم يكد يبلغ "صنعاء" حتى نفق بعد أيام !!

كانت الحجارة فى مثل حجم حبات الحمص والعدس، خيبت فألهم . وأطاشت سهامهم ، وحوّلتهم إلى صرعى ومرضى هالكين .

لماذ أفضنا فى ذكر هذه الواقعة ؟ ؟

لأنها الإرهاص "الذى نختاره من بين ماقيل من إرهاصات أخرى كِثَار ..

ففيها من الصدق التاريخى مايشجُب كل إعراض عنها، لاسيما ، وقد توَّج القرآن العظيم هذا الصدق التاريخى بإحدى سُورة القصار ، والمسماة "سورة الفيل" .. وذلك حين اصطفى الله "محمداً" ﷺ رسولا ، وراح يُصبره على عنت قومه وشنآنهم ، مذكرًا إياهُ بنعمته السابقة على أهله .. وبنقمته الماحقة للغزاة الآثمين ، فقال سبحانه فى كتابه المنزل عليه : ﴿ألَمْ تَـرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأَصْحَابِ الفِيلِ.. ؟ ألَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ .. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيرًا أَبَابِيلَ.. تَرْمِيهِم بحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ.. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ !!

سورة الفيل

فـى شهـر المـحرم مـن ذلـك العـام ، كـانت غـزوة أبرهـة الفاشلة .

ويشاء الله فيمـا بعـد ، أن يكـون "المحـرَّم" بـالذات هـو الشهر الذى يستهلُّ به المسلمون عامهم الهجرى المتساوق عـبر العصور والأزمان ..!!

وفـى ذلك العام أيضا – عام الفيل – استقبل شهر ربيـع الأول ، فى التاسع منه ، وقيل فى الثانى عشر مـن أيامـه الغُـرِّ والذى يوافق فـى التـاريخ الميـلادى العشـرين مـن أبريـل عـام خمسمائة وواحد وسـبعين .. استقبل ـ ابن البشـرية البـار ـ وطفلها العظيم ..!!

الطفل الذى سيقود طُفولتـه ، الرجـل الكـامن فيـه ..!!
الطفل الذى سيقول "الرجل الكامنُ فيه" : أنا لم أخلق لهذا .. حتى حين يدعوه لِدَاتُه وأترابه إلى لهو برىء ..!!

والطفل الذى لن يجد ـ حين يفدُ إلى الحياة ـ أبا ، يُناديه، فى براءة الأطفال وحاجتهم إلى الحنان ، قائلاً : يا أبى ! !

ذلك أن أباه لقى ربه ، وأمـه حـامل بـه .. وبعـد سـت سنوات من مولده سيفقد أمه .. تُرى ، هـل أراد الله لـه هـذا اليُتْـم المبكـر ليبـادر "الرجـل الكـامن فـى الطفـل" إلى التجلـىِّ

والظُّهور والهيتمنة . . ؟ ؟

على أيه حال ، فالأخبار الوثيقة عن طُفولته ، تُرينا فيه "رجولة" مبكرة تزدان بما لاعهد للأطفال به ـ مهما سَمَوْا ـ من أناة ، وحلم ، وتَرفُّع ، واتزان .

ما كان جده "عبد المطّلب" البعيد النظر ، والثاقب الفكر ، والحائز لقدْر كبير من نور البصيرة ، وشفافية الروح.. ما كان ليحتفى به كل تلك الحفاوة ، لا ليعتزَّ به كل ذلك الاعتزاز ، ولا ليصطحبه إلى حيث يؤُم من مجالس السادة والأشراف ، ولسانه يردد ـ دومًا ـ فى زهو وشرف عبارته المأثورة : "والله ليكونن لابنى هذا شأن" ..

أقول : ما كان "عبد المطلب" ليهتم بحفيده "محمد"ﷺ كل هذا الاهتمام الذى لم يمنح معشاره أحد من بقية الأحفاد. لولا ما كان يحمل الطفل الحفيد من مخايل النجابة ، وأمائر التفوق ، وملامح مستقبل واعد وعظيم . . ! !

وحين يرحل الجدُّ الحانى عن الدنيا ، وينتقل الطفل إلى دار عمه "أبى طالب" وكفالته .. نجد العم لا يقل عن الجد الراحل فى افتتانه بشخصية ابن أخيه ، واحترامه "الرجل الكامن فيه" . . ! !

وبنضج هذه الرجولة الكامنة كُمُون الماء فى العود الأخضر ، والسارية كذلك .. تحول الطفل سريعًا إلى فتىً يملأ الأعين جماله ، والأفئدة جلالُه ..!! فكيف نتصور هذا الفتى الدَّراج الماجد . . ؟ ؟

لنشاهد الآن الصورة التى رسمها بقلمه "أمير على" العالم الهندى المسلم فى كتابه القيِّم : "روح الإسلام" :

يقول : نستطيع أن نتصور ذلك الفتى بعينيه الحائرتين، مُطرقًا ، مفكرًا ، مهمومًا ، وكأنه يستشف حجب الغيب، أو تنفتح له نافذة ضيقة على مهام المستقبل ..

"نتصوره ، وهو يروح ويغدو فى رفق بين أفراد عائلة عمه المتواضعة ، أو يتجه إلى الصحراء ، فيملئٌ وجهه فى جمال وجه الطبيعة ..

كان ذلك الفتى رقيق الحاشية .. حلو الشمائل .. مُرهف الحس تجاة آلام الناس .

"وكان - ابن الصحراء — هذا ، الطاهر الضمير محبوبًا لدى كل من يتصل بهم .. ولدى عمه على الخصوص . إذ نشأ بين "أبى طالب" و "محمد" ﷺ ذلك العطف الأبوى الحميم الذى لم يذكر التاريخ له مثيلاً ..

"لقد شقَّ الملائكة صدره ، وملأوا بالنور قلبه" ..

كان الفتى المأمول ميمون النقيبة ، سعيد الطالع .. سعدت بطالعه وهو رضيع - مرضعته "حليمة السعدية" - سعدت به سعادة غامرة ، صورتها فى شهادة ناطقة وكلمات صادقة ..

وسعدت به قريش ، وهو فتىً غرير ونضير .. حين كان عمه يستسقى به فضل الله وغيث السماء .. ولنصْغ لشاهد عيان رأى أحد تلك المشاهد ، فقال : "قدمت مكة وهم فى قحط .. فقالت قريش : يا أبا طالب ، أقحط الوادى، وأجدب العيال ، فهلُمَّ فاستسق لنا ..

"فخرج أبو طالب ومعه غلام . وجهه كأنه شمس تجلت عنه سحابة قتماء .. وحوله أُغَيْلمه .. فأخذه أبو طالب، وألصق بالكعبة ظهره .. ولاذ بأصبعه الغلام .. وما فى السماء حينئذ قزعة ..

"وفجأة أقبل السحاب من هنا .. ومن هناك .. حتى أغدق واغدَوْدَق .. وانفجر الوادى .. وأخصب النادى والبادى .."

وهكذا كان الغلام الصغير "محمد" ﷺ كما سيصفه عمه

"أبو طالب" فيما بعد ، فيقول عنه :

وأبيض، يستسقى الغمام بوجهه

ثمال اليتامى، عصمة للأرامل

* * *

إذا كانت الطفولة ـ أية طفولة ـ تحمل فى باطنها المسْتَسِرّ ، وخبْئها المستكنّ ، وبذور نشوئها ونمائها، ما يؤمىء إلى مستقبلها عبر تطوُّر مُوَاتٍ ومحكوم . فإن طُفولة "محمد" ﷺ ويفاعته ، لم يكونا إلا "طليعة" صادقة ومُشرقة ، لرجولته الوافدة ، والواعدة .

كما ستكون "رجولته" بشيرًا صادقًا ومتألقًا لرسالته المقبلة ـ حيث يصطفى الله من رسله من يشاء ـ وحيث يَكْمُن فى "محمد الرجل" ـ "محمد الرسول" عليه صلوات الله وسلامه.

* * *

لقد كانت أم "الإسكندر الأكبر" تختصه دائمًا بهذه الدعوة العجيبة : "اللهم ارزق ولدى "حظًا" تُسخر له عقول الرجال.. ولا ترزقه "عقلاً" يُسخر لحظوظ الرجال . . ! !

وهى دعوة كما نراها مفرطة فى الأنانية !! ومع هذا

فكأنما صادفت مرة أو مرات بابًا مفتوحًا من أبـواب السمـاء.
فقد رُزق ابنهـا الإسكنـدر - فعـلاً - حظًـا سُخـرت له عقـول
الرجال . . ! !

ولكن ، ماذا تُفيد البشرية من البـاحثين عـن حظوظهـم،
والراكضين وراء طموحهم الشخصى ، ومجدهم المرغوب ؟!

غـدًا ، يجـىء "محمـد" ﷺ .. لتجـد الحيـاة فيـه حظّهـا
وعَقلها معا .. وتجد فيه دُعاءها المستجـاب الذى طالما قرعـت
به أبواب السماء ، وألحـتْ بـه علـى ذى العظمـة ، والجـلال،
والكبرياء .. كى يُعجل لها بالمنقذ الذى سيكون يوم يجىء.

أحلامُها ملء يقينه ..
وأشجانها أطياف شجونه ..
وحُلول مشكلاتها ، مطْوِيّاتٌ بيمينه ...!!

الفصل الخامس

الرســول الكــامِن فى الرجــل !!

ما كان يدرى ما الكتاب ولا الإيمان ..

ولم يكن اصطفاء الله لـه ، قـد وضـح فـى نفسـه ، ولا استبان له بصورة من صور اليقـين أنـه مُدَّخـر لرسـالة عظمـى سيختم الله بها الدين والمرسلين .

بيد أنه كان يملك إحساسًا عميقًا بأن أمامـه دورًا كبـيرًا ينتظره على شوق .

ماذا سيكون هذا الدور ؟؟

مصلحًا ..؟ قائدًا ..؟ زعيمًا ..؟

ليس يدرى بعد .. لكنه يدرك تمامًا أنه لم يخلق لمـا خُلـق له الكافة من الناس !!

أفلم يقل من قبل وهو طفل صغير لأترابه حين دَعَـوه إلى لهو برىء : "أنا لم أخلق لهذا" . . ؟ !

* * *

لقد مُنِحَ من السَّجايا الفارهة ، ومن حميد الخصال، ومن رفعة النفس ، وطهر السلوك ، ونقاء الضمير ، ما جعله مَهْوَى أفئدة قومه جميعًا ، وموضع احترامهم ، حتى عقدوا لـه إمـارة الصدق والأمانـة ، فلقَّبـوه : بـ "الصـادق الأمـين" ... كـان يسلك سلوك المرسلين ، دُون ، أو قبل أن يكون واحدًا منهم.

وكـانت أيـام حياتـه ، وسـنوات عمـره نسـيجًا مـن النور..!! لم يكن يدرى أن ثمَّة إرادة عليا تحدُو خُطاه ، وترعى مسيرته ، وتقودُه فى الطريق الذى يتلقى فى نهايته بما أعدَّته له هذه الإرادة من دَوْر يضىء به من جديد ظُلماتِ الحياة ..!!

لم يكن يرى "الرسـول" الكـامِنَ فـى "الرجُـل" .. لكـنّ وعيه، وقلبه ، كانا فـى حالـة "حُضُـور" كـامل تِجَـاهَ مأسـاة الإنسان !!

ولقد تمثلت هذه المأساة فى الكثـير مـن حماقـات النـاس، وفى استعباد الأقوياء الضعفـاء .. وامْتهـان الأغنيـاء الفقـراء.. وفى الأعْراف الفاسدة التى كانت تجعل الظلم هو القاعدة، أما

العدل فشَاذّ ونشَاز .. وفى التقـاليد العفِنـة ، والـرُّؤى الغبيّـة، والجهالات الموروثة ، والسلوك المُلْتاث . . . ! !

وكان أكثر ما يُقلِقُه ويُؤرِّقـه ، تلـك الصفـوف المتحلقـة حول حجارة مرصوصة تُشكل أصنامًا صُمًّا ، وبُكْمًا ، وعُميًا ﴿ وَإِن يَسْلُبهمُ الذّبـَابُ شَيْئًا ، لاَ يَستَنقِذُوهُ مِنهُ .. ضَعُـفَ الطَّالِبُ والمَطلُوبُ ﴾ . . ! ! !

* * *

أين التوحيد الذى هتف به من قرون بعيـدة ، وفـى هـذا البلد بالذات ـ مكة ـ أبو الأنبياء ، وخليل الرحمن "إبراهيـم".. عليه السلام . . ؟ !

لقد هتف من قديم بالحقيقة التـى الْتقـى بهـا بعـد طـول بحث ، وإمعان نظر ، وقراءة فى السماء . وتقلّب بين النجـوم وآياتهـا .. والكـون ومعجزاتـه .. فهتـف فـى أعمـاق قلبـه الذّكـىّ: ـ ﴿ وجَّهـتُ وَجْهِـى لِلَّـذى فطـر السمـوات والأرض، حنيفًـا ، ومَـا أناَ مِنَ المُشرِكين ﴾ .. ولقـد تركهـا باقيـة فى عَقِبـه ، مُدويـة فـى آفـاق الجزيـرة الواسعـة .. فـأين ذهبت هـذه الحنيفية السَّمحة ، والمؤمنه ، والموحّدة . . ؟

هل ضاعت ، أو تاهَتْ فـى زحـام الوثنيـة والشّـرك..؟!

لقد كان هناك هُداة يبزُغون بين الحين والحين ، يُلوِّحون براية "إبراهيم" ويدْحضُون بأصوات عالية ما كان قد تغشّى حياة قريش فى مكة ، والعرب كلهم فى شبة الجزيرة العربية من وثنية وشرك ..

كان منهم من سبق الرسول الكريم ﷺ بعشرات السنين، وربما بمئاتها .. ومنهم من كان إرهاصًا بين يدى فجر الطالع القريب .

فمن الأولين ـ سُويد بن عامر المصطلقى الذى جهر بعقيدة البعث ، ويوم الجزاء .

وعامر بن الظَّرِب الذى كان يقول لقومه :

"إنى ما رأيت شيئًا قط خلق نفسه .. ولا رأيت موضوعًا إلا مصنوعًا .. ولا جائيًا إلاَّ ذاهبًا . ولو كان الذى يميت الناس الداء ، لكان الذى يحييهم الدواء ..!!

وكان منهم : المتلمس بن أمية الكنانى الذى كان يتوسط القرشيين عند الكعبة التى جثمت حولها الأصنام ويَصدْح فيهم بقوله : "أطيعونى ترشُدُوا .. لقد اتخذتم آلهة شتّى .. وإن الله ربكم ، وربٌّ ما تعبدون" ..

وكان من بينهم "زهير بن أبى سلمى" يمسك أوراق

الشجيرات التى اهتزت خَضِرة ، بعد كانت هامدة يابسة ، ويقول : ـ "لولا أن تَسبُّنى العرب لآمنت أن الذى أحياك بعد جَفاف ، سيحيى العظام وهى رَمِيم" ..!!

كان هؤلاء ، وآخرون معهم ، يستشرفون الحقيقة، ويطالعونها ببصائر مُضاءة .. لكنهم لم يظفروا بالاصطفاء ولا بالرسالة اللذين سيظفر بهما "محمد"ﷺ القادم بعد حين وكذلك كان من أنماطهم الرفيعة ، نفر كريم ظهروا قبيل البعثة المحمدية .. بل كان منهم من عاصر الرسول قبل بعثته.. فهذا "أبو قيس بن أنس" اعتزل قريشًا وأصنامها .. واصطنع له فى داره مسجدًا صغيرًا ، لايدخله طامث ولا جُنب، وقال: أُعبد رب إبراهيم ..

ولقد عاش حتى بُعِث الرسول ﷺ فأسلم معه ..

وكان هناك ثلاثة آخرون من هؤلاء "الحُنفاء" انْسابت من أفئدتهم الضارعة كلمات التوحيد كأنْسام الربيع وسط الهجير الوثنى المشبوب ..!! وكأنما كانوا جميعًا . السابقون منهم واللاحقون . إرهاصًا بالدين المقبل ، وبالرسول القادم الذى سيعيد راية الحق إلى مكانها ، ويُسوّى بالوثنية التراب..!!

(راجع كتابنا "وجاء أبو بكر" ..)

لم يدّع أحد من هؤلاء ، ولا من أولئك الرسالة .. فهل سيدّعيها "محمد" حين يجيىء . . ؟ !

* * *

هذا الرجل يملأ "مكة" عبيْرُه .. وأينما سارت به خُطاء فالخير ، والحق ، والهُدى فى ركابه !!

وإنه ليحمل ضميرًا يميز به بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضَلال .. ضميرًا مُضاءً ، ومُضيئًا يبعث فيه إحساسًا غير مألوف .. إحساسًا بنور غير منظور يضيء عقله ، وقلبه، ورُؤاه . . ! !

ويُرسل ذاكرته إلى سنوات العمر السالفة بعيدها وقريبها . قاصيها ودانيها . فلا يكاد شئ ما يناديه إليه .. إذ أن حياته الظاهرة والمنظورة ، لم تكن أيامها تنطوى على مشاهد غير مألوفة فى حدود ما استَمسك به ، وعُرف عنه من طُهْرٍ ونُسُك ، وأمانة وصدق ..

ولكن لعلّه استأنى وتوقّف مع ذلك المشهد بالشام حين صحب عمه "أبا طالب" فى إحدى رحلاته التجارية.. ذلك أنه حين نزل الركب بـ "بُصْرَى" وهى التى تسمّى الآن

"حُورَان" .. اتجهوا لزيارة "بَحِيرى الراهب" الذى كـان يتعبـد في صومعة من صوامع الناسكين ، ويقضى بها حياته فى ظـل ما تُفيئُه على العابدين سكينةُ الإيمـان وبُرْدُ اليـقـين ..

وقريبًا من صومعتِه ، نزلوا تحت شـجرة يتفيَّأون ظِلالها ولعلّ ظلها الظليل لم يتسع لهم جميعًا ، فاستأخر الفتـى الجليل إلى حَوافِيه ، مُفْسِحًا المكان لآبائه الكبار ..!! وشىء مـا شـد بَصر "بَحيرى الراهب" إلى الغـلام الوضـىء والمضـىء ، فـرأى عجبًا.. رأى أغصان الشـجرة وقـد تَهَصَّرَتْ ، وتدلّـت علـى "محمد" حتى غطته بظلها ..!! ورأى "بحيرى" أن يسبُر أغـوار الغلام بعدما رأى من عجيب أمره ، فدعـا رجـال الرَّكـب إلى وليمَة وطعام .. وحين تحلّقـوا حول مائدته افتقد الغلام الأثـير لديه والذى من أجله استضافهم ، حتى يجد فرصة سانحة ليبلُـو أمره ، ويستبطن خبره ..!!

هنـالك قـال لهم : لا أريد أن يتخلـف أحـد منكـم عـن طعـامى .. فأجـابوه : مـا تخلـف عنـك أحـد إلاّ غـلام ، هـو أحدث القوم سنًا ، ولقد خلّفناه فى رحالنا .. قال لا تفعلـوا، ادعوه ليحضر الطعام معكم . . ! !

وندع "ابن هشام" أو "ابن إِسحاق" أوهُما معًـا يرويـان

لنا بقيَة النبأ العظيم :

".. فقال رجل من الرَكْب : والـلات والعُـزَى إن كـان لَـلُؤْمٌ بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبـد المطَلـب عـن طعـام من بيننا.. ثم قام إليه واحتضنه ، وأجْلسه مع القوم .

"فلما رآه "بحيرى" جعل يلحظُـه لحْظـاً شـديدًا ، وينظـر في أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته .. حتـى إذا فرغ القوم من طعامهم ، وتفرَقوا ، قام إليه "بحيرى" فقـال له: يا غلام . أسألُك بحق اللات والعُـزَى إلا ما أخـبرتنى عمـا أسـألك عنه ؟ وإنما استحلفه "بحيرى" باللات والعُـزَى ، لأنـه سمع القرشـيين يحلفـون بهـا ، أو لأنـه أراد أن يختـبر أعماقـه.. فأجابه "محمد" لاتسألنى باللات والعُزَى ، فوالله مـا أبغضْـتُ شيئًا قط بغضهما . . ! !

"فقال له ـ بحيرى ـ فبالله إلاّ أخبرتنى عما أسألك عنه .. فأجابه الغلام : سَلْنى عما بدا لك "فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه ، وهيئته وأموره .. فجعل يخبره ، فيوافـق ذلـك ما عند "بحيرى" من صفته .. ثـم نظـر إلى ظهـره فـرأى خـاتم النبوَة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده ..!!

"فلما فرغ أقبل على عمه "أبى طالب" وسأله : مـا هـذا

الغُلام منك ؟ ؟

قال : ابنى

قال بحيرى : ما هو بابنك .. وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا . . ! !

قال : فإنه ابن أخى ..

قال : فما فعل أبوه ؟ ؟

قال : مات ، وأمه حُبْلى به ..

قال بحيرى : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده.. واحذر عليه "يهود" !! ، فوالله لئن رأوه ، وعرفوا ما عرفت ليبْغُنَه شرًا .. فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم.." ! ! !

* * *

نقول : لعلّ هذا المشهد الذى لا يجد العقل السَّديد أى حرج فى تقبُّله ، كحقيقة تاريخية ، روى التاريخ منها الكثير، ولا تزال نظائرها تصدع وتظهر ، حتى فى عصرنا هذا، مُرْهِصة بقدوم عظيم ، ومُبشرة بمقدم رائد جديد من رُواد الحياة الأفذاذ .. أقول : لعل هذه الواقعة كانت ـ أكثر من سواها ـ تدور عليها خواطر "محمد" الرجُل ، فتُوحى إليه بأنه

رُبما كان فى انتظاره مهامٌّ جليلة ، ودور عظيم ..

وعلى أيّة حال ، فقد كان الاحترام الفريد الذى يحمله له قومه يتنامى كل يوم ، ويدعوه إلى التحدث مع نفسه فى خلواته .. لاسيِّما تلك التى كان يقضيها وحيدًا فى غار حراء . . ! ! !

ولا نحسب أنه ينسى ، أو يتناسى ، ذلك اليوم الذى يتلألأ كألمع دُرَة فى تاريخه كرجل .. قبل أن يصبح الرجل رسولاً !!

فحين كان يجتاز الخامسة والثلاثين من عمره الممَجَّد، اجتمعت "قريش" لتجديد بناء الكعبة ـ إذْ كانت يومذاك "رَضْمًا" أى حجارة رصَّت بعضها فوق بعض من غير مِلاط يُمسكها .

ولقد تردَّد زعماء قريش طويلا أمام هدمها لبنائها من جديد . وارتعدتْ فرائصهم ، وهم يقتربون منها بمعاولهم ليبدأوا عملية الهدم ، حتى صاح فيهم أمثلهم طريقة، وأشجعهم رُوحًا ، وتقدم بمعوله بادئًا الهَدْم ، حتى إذا رأى الآخرون أنه لم يَمْسسْه سوء تشجعوا ، وتنادوْا لإنجاز مهمتهم الماثلة .. ووصَلوا بالبناء إلى موضع الركن ، فاختصموا فيه..

كل قبيله تريد أن تنفرد برفعه ووضعه فى مكانه .

واشتَجَر النزاع ، واحتدم الصراع .. وذهبت أكثرية هذه القبائل إلى أحيائها . ثم عادت مُدَجَّجة بأسلحتها.. وجاءت قبيلتان بَجفْنة مملوءة دمًا ، وأدخلوا أيديهم فيها مُتواثقين ومتعاهدين على أن ينفردوا برفع "الحجر الأسود" إلى مكانه ، أو فليموتوا دون ذلك .. وسُمُّوا ذلك اليوم "لَعَقَة الدم" . . . ! !

لبث الصراع خمس ليال .. ثم عادوا فاجتمعوا فى المسجد الحرام ، والأزمة لم تُسَوَّ بعد ..

ونهض بينهم "أبو أميَّة بن المغيرة" من بنى مخزوم وكان أكبر القرشيين سِنًّا واقترح عليهم أن يُحكِّموا أوّل داخل إلى المسجد . . ! !

ومَرت دقائق صامتة ، والأبصار معلقة بالأبواب .. تُرى من سيكون هذا الذى ستختاره المقادير ليحسم هذا الخلاف المنذر والرهيب . . ؟ !

وفجأة أطل "محمد" ﷺ ونوره يسعى بين يديه .. وصاح المجتمعين "هذا الأمين .. هذا محمد .. قد رضيناه حكمًا" !!

واستنبأهم الخبَر ، وكانت قد ترامت إليه من قبل أخبار

النزاع الذى ظل مَشْبوبًا خمسة أيام .. ولم يفكر طويلاً فيما يصنع . فقد تقدمت بديهته المشرقة بأسعد الحلول ..

دعا المجتمعين أن يأتوه بثوب .. فأتوه بثوب .. فأُتى به، وأخذ "الحجَر" بيمينه ، فوضعه فى الثوب ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب ، ففعلوا .. ثم قال: ارفعوه إلى أعلى ، فرفعوه .. حتى إذا بلَغُوا به موضعه ، تناوله بيديه الكريمتين ، وبَوَّأه مكانه ، ثم بنى عليه . . ! ! !

إذا قلنا إن "الرسول" ﷺ الكامن فى "الرجل" كان بطل هذا الموقف ، لم نكن عن الحقيقة معرضين .. ولَكُم يسعدنا أن ننقل هنا أبياتًا عذبة من الشعر لشاهد عَيان رأى بعينيه جلال الموقف وسَناه ـ ذلكم هو "هبيرة بن أبى وهب المخزومى" فلْنصْغ إليه :ـ

تشاجرت الأحياء فى فصل خُطة
جرتْ بينهم بالنَّحس من بعد أسعدِ
تلاقَوْا بها بالبغض بعد مودةٍ
وأوقد نارًا بينهم شرُّ مُوقِدِ
فلما رأينا الأمر ، قد جَدَّ جدُّه
ولم يبق شىء غير سَلِّ المهند

رضينا ، وقلنا : العدل أول طالع

يجــيء من البطحــاء من غير موعد

ففاجــأنا هـــذا الأمين محمـــــد

فقلنا : رضينــا بالأمــين مُحَمَّدِ !!

* * *

هـذا ، رجل كانت الأقدار تعدُّه ، وتختصُّه بحمل تبعـات الغد .. الغد الذى لن ينتهى بين عَشِيَّة وضحاها . بـل سيمتد ويطول حتى يرث الله الأرض ومَن عليها ..!!

هـذا ، هـو "محمـد" ﷺ .. يعزف فـى إبـاء وفَهـم عـن معتقدات قومه الباطلـة الهازلـة .. ويـتردد إلى غـار هنـاك فـى أعماق الجبل ، يُنصِتُ فيه إلى هَمْس الكـون كلـه ، وإلى رُؤاه المُجَنَّحَة فى ملكوت الله .. ويتحدث مع نفســه ومـع أشـواقه حديثًا مُعطرًا بالذكاء ، وبالوعى الباطنى ، والإلهى المُضاء..!!

ثم يغـادر الغـار إلى الحيـاة الصاخبـة ، مُؤديًـا فيهـا دوره وعمله فى طهر وعَناء ..

أكانت أحاسيسه ومشاعره على موعد مع أمْر مَّـا ، قـد اقتربت أيامه، وتهيأت أعلامُه..؟؟ أكان "الرسول" ﷺ الكامن فى "الرجل" على وشْك أن يُؤْذَن بالظهور ..؟

هـل انتهـى دور الإعـداد والتهيئـة ، وأقبـل دور الإمْـداد والرسالة الخالصة ..؟! ها هـو ذا يكـثر مـن اللُّجـوء إلى غـاره الحبيب .. وكأنـه على موعــد هنـاك مـع مفاجـأة لا يعـرف هَوِيَّتها ، ولا يـدرك حقيقتهـا ..!! إن كـل شـيء فـى داخلـه يتوهج ويتألَّق .. ورُوحُه الطُّلَعة تتواثب بين جوانحه .. ويبــدو قلبه الكبير ، وكأنه يريد أن يطير. . . ! ! !

وبسـمعه المرهَـف المتحفـز، قـد أعـرض عـن الكلمــات والإشارات ، وأوْصد جميع نوافذه إلا نافذه واحدة اقترب منها وألْقى إليها نفسه فى تجدُّد وتبتُّل ، وإنصات وإصغاء .. لكأنَّـه على موعد مع كلمات سيتلقّاها من الله ..!!

* * *

هذا ، فى داخل الغار .

أما خارجه ، فقد بدت الحياة وكأنهــا تحوَّلـت بكـل مـا فيها إلى مهرجان حافل ورائع تصدح من خلاله ، وتهتف :

ــ أهلاً بمقدم الرسول ﷺ ..!!

الفصل السادس

وجـاء يوم الشـروق

ليـس مـن مَهـامِّ هـذا الكتـاب المتابعـة التفصيليـة لحيـــاة الرسول ﷺ، إذْ أن ذلك مهمة المؤرخ وأسْفار التاريخ .

وأنـا هنـا لا أؤرِّخ الحيـاة العظيمـة لخـاتم الأنبيـاء وإمـام المرسلين .. إنما أحاول فى تواضع وحياء أن أقترب من مطـالع النور الماثلة فى تألُّقات هذه الحياة وفى سُمُوقِها وجلالها ..

أحـاول أن أجمـع الـذين سيطالعـون هـذه الصفحـات بالحقيقـة المسـفرة كضـوء النهـار .. والهاتفـة بصـدق "محمـدٍ" وصدق رسالته . والتى تنادى الناس ـ جميـع النـاس ـ بصـوت صادع وجهير: إن "محمداً " رسول الله إلى الناس كافـة.. وإن الصدق والحقيقة لايجدان نفسيهما، ولا يحققان ذاتَيْهما، بمثـل

ما يجدان وما يُحققان فى نبأ هذا الرسول الصادق والأمين..!!

* * *

ولقد مَررْنا سِراعًا بإِرهَاصات طُفولته ويَفاعَتِه .. وبِرُجولة شبابه ، واستهلال رجولته .. حيث رأينا أيام اليافع ، والشاب ، والرجُل فيه تتنقل فيها وبها أطوار حياته طاهرة وباهرة وعظيمة ..!! حياة تحفل سريرتها المستكنّة بِرُؤى طموحه فاضلة ، وهُيام بالإِسهام بلا حدود فى إرجاع الخلق إلى الربّ .. ووضع الآصار والأوزار عن البشر الحيارى والتائهين ، والمتخبطين فى الظلمات ، تنتظرهم فَجاءَةُ النِّقْمة، وشِقْوَة المصير . . ! !

من أجل ذلك كان يأوى إلى "غار حراء" ليتأمل وليهيىء سمعه ، وقلبه قبل مسمعه ، لتلقى الصوت الخالد .. صوت الحقيقة ، والهدى ، والخير ، الذى لم يَغِبْ عن دنيا الناس لحظة .. يُلْهم الرُّوّاد الذين يسيرون فى الدروب غير المطروقة . مُمهِّدين الطريق ، وغارسين المشاعل أمام البشرية السائرة ، والمسافرة ..

بيد أن الصوت الخالد هذه المرة ، كان أعمق وأوثق من

كل ما سمع الرواد من أصوات ، وما تَلقّوا من إلهامات.. أجل ـ هذه المرة يختلف رنينهُ ، وتتميز هويّتُه .. فهو "وحى" لا "إلهام" وهو "جبريل" يتحدث .. وليست "خواطر" تتردَد.. لقد آن للذى طال انتظاره ، وطال قرْعُه الأبواب، وطال تقلُّب وَجْهِهِ فى السماء .. آن له أن يعرف أنه هو .. وليس أحدًا سواه . . ! ! !

هو ، هو المدَّخر لحمل آخر كلمات السماء إلى الأرض ..!!

وهو ، هو ـ الذى بشرَّت به الكُتُب ، وتحدَّث عن قرب مجيئه الأنبياءُ ، والحُنفاء . . ! !

وهو ، هو ـ الذى سيحمل فوق كاهِله الوثيق تبعات دين ورسالة ، ليْسًا إلى قومه وحدهم ـ كما كان شأن الأنبياء من قبله ـ بل إلى البشرية كلها .. ("قل : يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا") ..

وهو ، هو ـ من سيحمل النور الذى طالما بحث عنه فى توْق عظيم .. وسعَى إليه فى شوق حميم . . ! !

وبعبارة واحدة ــ هو "محمد" رسول الله .. ونذيرُه.. وبشيره .. والداعى إليه بإذنه وسراجه المنير ..!! فكيف تمت

كلمة الله ، وكيف ـ فى يوم شروق عظيم ـ تلقَى كلمة الله، ووثيقة التكليف ؟ ! !

* * *

من قبل ، كانت الرؤيا الصادقة تملأُ نومه بالبُشْريات.. فكان لا يرى رؤيا إلا صدقت وتحققت كانبلاج الصباح وضوء الضُّحى .. لكنه اليوم . وفى السنة التاسعة بعد الستمائة للميلاد .. وفى الهزيع الأخير من إحدى ليالى رمضان ، اْلتقى أمين الأرض بأمين السماء ..!! وجاءه الملك ..!!

....

....

لن تستطيع الأقلام أن تُصوِّر أو تتصور حقيقة ولا هوية ولا أسرار تلك اللحظات التى شهدت ـ لأول مرة ـ لقاء سفير السماء بالأمين "محمد"ﷺ الذى سيصبح بدءًا منها ومنه "رسول رب العالمين"..

فلْنتجاوزْها إلى الحوار المثير الذى دار بين الملك والرسول فى مثل سُرعة الضوء .. وهو حوار يرويه الرسول ـ عليه السلام ـ بنفسه قائلاً :

".. فقال : إقرأ .. قُلت : ما أنا بقارئ .. فأخذنى فغطّنى - ضمه بقوة واعتصار - حتى بلغ منى الجهد !! ثم أرسلنى - تركنى - وقال : إقرأ .. قلت : ما أنا بقارئ.. فأخذنى وغطّنى الثانية !! ثم قال : إقرأ .. قلت : ما أنا بقارئ .. فأخذنى وغطّنى الثالثة !! ثم أرسلنى ، وقال إقرأ..

قلت : وماذا أقرأ ..؟؟ فقال :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق..

خلق الإنسان من علق ..

إقرأ وربك الأكْرم ..

الذى علم بالقلم ..

علّم الإنسان ما لم يعلم..﴾

أهَلَّ - إذن - يوم الشروق والاصطفاء .. ودقَتْ ساعاته الصادحة ، وبُشْرياتُه المانِحَة . . ! !

* * *

والآن ، أرجع والقارئ معى إلى كلمات كنت قد أودَعْتُها كتابى : "عشرة أيام فى حياة الرسول" . الذى ظهرت طبعته الأولى فى مارس عام ألف تسعمائة وسبعين .. أرجع إليها ، لأنها لا تزال ، وستظل تُمثل "رؤيتى"

وتفسيرى ، وانبهارى بيوم الوحى العظيم ..

"أعلنت السماء إذن مُختارها ومُصطفاها الذى طالَ ترقُّبه، وانتظاره .. وصدقت إذن كلمات الكتب ، ونُبوءات الحنفاء والقدّيسين ..

وهاهو ذا ، فى مكان منعزل عن صخب الحياة ، فى أعمق غور لأعلى جبل ، حيث أوى إلى هناك ناسكًا طهورًا يضرع إلى ربه كى يدلّه عليه ، يهبط عليه سفير السماء فى جلاله ، حاملاً نور الله إلى المتبتل الأواب ، وحاملاً إلى البشرية وثيقة رُشد جديدة سيكون إمامها فيه وأستاذها ومعلمها هذا الإنسان الودود ، حفيد إبراهيم ، ودعوتُه وبُشراه . . ! !

تُرى لو لم يكن يوم الوحى هذا ، بين أيام الدنيا ، فأى مصير كانت البشرية ستلاقيه . . ؟ ؟

إن الكلمة التى استهلّ بها الوحى نجواه مع رسول الله ﷺ لتقدم لنا أروع وأجمع .. وأوجز وأنجز جواب ..

فإذا كان العلم ، جوهر كل حضارة أقامها الإنسان على ظهر أرضه ، وكوكبه ..

وإذا كان الإسلام ـ فيما بعد ـ قد قدم للدنيا حضارة

متكاملة تدين لها كل الحضارات التى جاءت بعده ، حتى تلك التى استهدفته بشنآنها وعدوانها .

إذا كان ذلك كذلك فإننا نستطيع أن ندرك فى يُسر لون المصير الذى كانت البشرية ستلقاه وتتردى فيه لو لم يكن يوم الوحى .. يوم "اقرأ باسم ربك" ، يوم "القرآن" و "محمد" و "الإسلام" بين أيامها ، بل على رأس أيامها.

كذلك نستطيع أن ندرك فى يسر ، لماذا كانت أولى كلمات الله إلى رسوله "اقرأ" .

لم تكن "صَلِّ" ولا "صُمْ" ، ولا "تعبَّد" بل كانت: اقرأ.. هذه "الكلمة" التى لخصت جوهر الإسلام ومستقبله..

فهو لن يكون دين تكريس دينى فحسب . بل ولا دين سلوك فحسب ، إنما هو قبل ذلك وفوق ذلك "دين حضارة".. جاء ينشىء عالمًا جديدًا بكل ما تحمله كلمتا "عالم" و "جديد" من معنى ودلالة .

ولكى يستيقن الناس عبْر الزمان كله أن هذه الحضارة المقبلة هى عطاء السماء ، فقد اختير استاذها وبانيها ذلك الذى لاعهد له من قبل بقلم ولا بكتاب .. ذلك أنه يكون مخترعًا لهذا الدين ولحضارته .. إنما هو مبلغ عن الله.. ناقل

عطاياه من السماء إلى الأرض .. ومن ثمّ سيكون معه من المقدرة ما يغير به كيمياء الزمن ، وكيمياء البشر وكيمياء الحياة. . ! !

ومن يدرى .. فلعل الضمّات الثلاثة الشديدة التى ضمّه الملك بها حتى كادت أضلاعه تنسحق تحت ضغطها ، والذى وصفها الرسول فى حديث آخر قائلا : "فغطّنى حتى ظننت أنه الموت"

أقول : لعلّها كانت إجراءً مقصودًا لتغيير كيمياء جسده هو .. وتغيير كيمياء روحه هو ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام حتى يتسع جسده وروحه للقوة الجديدة التى أفرغت فيهما ليحتملا عبء الرسالة وأهوال النضال .

ولعل انقطاع الوحى عنه بعد هذا اللقاء الأول لفترة بلغت سنوات ثلاثًا ، كان إجراءً ضروريًا ، حتى يتمكن الجسد والروح معًا من من استيعاب القوة الإلهية الجديدة التى أفرغت الوحى فيها ، وحتى تتكيف كيمياء طبيعته البشرية بذلك المدد العُلوى الذى نقلته إليه الضمّات الثلاثة الضاغطة التى احتواه بها ملك الله جبريل ..

والآن لنمضى مع "يوم الوحى" فى بقيته المجيدة .

إن الرسول يغادر الغار مُسرعًا تغذ الرهبة خُطاه ، يسائل نفسه ما هذا الذى حدث فجأة وعلى غير انتظار ..؟ ويتلفت وراءه . وأمامه ، وعن يمينه وعن شماله ، فيطمئن إلى أنه وحده، وليس ثَمَّةَ من يتبعه .. بيد أن الأفق يلتمع فجأة بضياء عجيب ، فيرفع الرسولﷺ رأسه ليرى .. فإذا هو هناك يملأ الأفق فى جلال مهيب .. نفس الملك الذى كان من لحظات يملأ عليه غار حراء ، وتمخر الرعدة العذبة جسده من جديد ، ولا يدرى أيان يسير ، فتشبث قدماه بالأرض ، وتستقبل أذناه هذا النداء :

"يا محمد ! أنت رسول الله ، وأنا جبريل"

فيغشاه من وقع المشهد ما يغشاه ، وتزداد قدماه التصاقًا بموطئها كأنهما من الأرض بعض غِراسها ..!!

ويغيب الضوء ويغيب معه مشهد الملك ، ويستأنف الرسول سيره مقتلعًا من الرمال خُطاه ..

ولا يكاد يبلغ داره ، ويلقى زوجة "خديجة" حتى يلقى نفسه فى حجرها وبين يديها ، وكل جسده يرتجف كالزلزال..

وتهتف "خديجة" وقد التمع وجهها الجليل تحت ضوء

الأمل واليقين :

"أبشر يا ابن عم ، واثبْتْ "

فوالذى نفس خديجة بيده ، إنـى لأرجـو أن تكـون نبـىّ هذه الأمة"

يقول لها الرسولﷺ ، وقد أخذ الرَّوع يُزايله ، والسَّكينة تقترب منه : "لقد خشيت على نفسى" .

وتجيبه خديجة :

"كـلا .. وأبْشـر .. فـوالله لايُخزيـك الله أبـدًا ، إنـك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديـث ، وتحمـل الكلّ ، وتكسـب المعدوم، وتقرى الضعيف ، وتُعين على نوائب الحق" .

لم تعش "خديجة" التجربـة التى عاشـها الرسـولﷺ فـى الغار .. كانت بعيدة عن هــذا الـذى حـدث فجـأة ، وانتهـى فجأة .. فى لحظات ، كأنها قرن من الزمان ..!!

من أجل هذا ، كانت فرصتها مُهيأة لكى تقول كلماتها هذه فى هدوء .. وجزاهــا الله خـيرًا ، فقــد كـان مـوقفها ذاك جـديرًا بمـن اختـارها القـدر علـى علْـم لتكون قرينة هــذا الرسول صلى الله عليه وسلم..

* * *

تُرى لو أن "محمدًا"ﷺ كان يطمح إلى مجد النبوة، ويعمل لبلوغ هذا المجد بوسائل مصنوعة ومُتكلّفة ـ أكان حاله عند مجيء الوحي إليه سيأخذ هذا الطابع الذى رأينا ..؟!

كلا .. بل ولا كانت الأقدار ستختاره لهذا العطاء .

لكن "محمدًا"ﷺ كان يرجوا الله ربَه .. كان يريد الله ربَه .

لم تكن فيه ذرَّة طموح لمجد دينى . اعنى لمجد يكتسبه باسم الدين .. بل كان كله طموحًا لتكريس دينى .. كان كله شغفًا وهُيامًا بعبودية خالصة يطرحها فى تواضع وبكاء بين يدى ربه العلى الكبير .. وكان كله شغفًا وهُيامًا بأن يعرف الحق ، ثم يهديه إلى البشرية الحائرة ويهديها إليه. ثم كانت مزاياه التى فطره الله عليها تؤهله لكل ذلك .. فكان فضل الله عليه عظيمًا .

* * *

لم يكن من طبائع الأشياء أن تنجو "خديجة" من ذهول المفاجأة رغم الكلمات الحانية التى ألهمتها حكمتها إياها، لتُسرى بها عن الرسول رهبة المشهد ، وتخفف من وقعه وهيمنته .

لم يكن مـن طبـائع الأشـياء ، ولا مـن طبـائع البشـر ألا ينتقل إليها من الرهبة نصيب ، مهما حاولت بهدوئها المتبـدى أن تكتم الرهبة وتخفيها .

صحيح أن رهبتها لم تكن شيئًا مذكـورًا بالنسبة لرهبة الرسول الذى عاش التجربة وعاناها .. بيد أنها رهبة تثـير مـن الحيرة .. وحيرة تُثير مـن الرهبـة مـا يدخـل الذكـاء الإنسـانى مهما تكن مقدرته في أزمة تساؤل وقلق .

ولقد استطاعت "خديجة" العظيمـة حقًـا أن تلقـى وجـه المفاجأة بثبات كان نابعًا مـن شـخصيتها الفريـدة .. أمـا بقيـة المفاجأة ، فقد كانت بحاجة إلى نجدة أخرى تُعطـى لمـا حـدث تفسيرًا ، وتُضفى على الروع الذى لايزال مأخوذًا ، المزيد مـن السكينة واليقين .. وتمثلـت لهـا هـذه النجـدة فـى ابـن عمهـا "ورقة بن نوفل" واحـداً مـن الذيـن استهجنوا عبـادة الأوثـان والأصنـام .. وأضنـى نفسـه فـى البحـث عـن الديـن الحـق .. وحـين أدركـه الإعيـاء ألقـى رحلـه علـى مرفـأ مـن مرافـىء النصرانية متمثلا فى ذلك المذهب الذى كان يرى فـى المسـيح بشرًا ، لا إلهاً ..

وهـكذا اقترحـت "خديجة" على "الرسول"ﷺ : أن يذهبا

إلى "ورقة" علّهما يجدان عنده رأيًا وتفسيرًا ..

كان "ورقة بن نوفل" على علم واسع بالتوراة والإنجيل.. وقد قضى شطر عمره فى البحث عن دين حق يعبد الله به، وخلال رحلاته وأسفاره التقى بكثير من الأحبار والرهبان والناسكين ، ولطالما سمع نبوءة تتردد بأن رسولا يبعث إلى الحياة دين إبراهيم على وشك أن يُهل ويظهر . وذهبت بعض النبوءات إلى أبعد من هذا ، فحددت مكان ظهوره ـ مكة وما حولها .

وعاش "ورقة" بقية عمره ينتظر على شوق يوم الظهور، ويمنى نفسه بصحبة الرسول الذى اجتمعت نبوءات العارفين على قرب مجيئه ، لذلك وطّن نفسه على الاستقرار بمكة فى انتظار الرسول .

وهكذا لم تكد "خديجة" تقدم نبأ زوجها عليه السلام، قائلةً له :

"يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك"، حتى هاجته أشواقه العميقة . وأقبل على الرسول يصغى إليه فى انبهار عظيم .

ولا يكاد الرسولﷺ يُنهى حديثه حتى يتهلل "ورقة"، ويفيض بشرًا، ويعانق الرسولﷺ ويقول له :

"هذا هو الناموس الذى أنزل علـى موسـى ليتنـى أكـون حيًا إذ يخرجك قومك" .

ويسأله الرسولﷺ : "أو مخْرجى هم" ..؟

ويجيبه ورقة : "نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت بـه إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا"

بهذه الحفاوة ، وبهذا اليقين تلقى "ورقة" النبأ الحق الذى كان من قبل نُبوءة طال تطلعه إليها .

وإنه ليتمنى أن يدركه يـوم البعـث ليكـون أول المؤمنـين وأقوى النُّصراء . لكنه سـيموت وشـيكًا ، قبـل أن يجـىء يـوم البعث العظيم .

وهكذا لم يُقدر له رغم فرحه الغامر أن يؤمــن بالرسـول وبالدين الجديد .

ذلك أن الدين الجديد لم يكــن قـد أعلـن ميثاقـه بعـد ..

والرسولﷺ لم يؤمر أن يبشر بشىء ، أو أن يتلقى بيعة .

إنه الآن يعيش فى يوم الوحى .. يوم ﴿ اقرأ باسم ربـك الذى خلق ﴾ . وبعـد حـين يجىء يـوم البعـث .. ﴿ يـا أيهـا المدثر ، قُم فأنذر ﴾ .

وبين اليومين زمن ليس بالقصـير ، سـينقطع فيـه الوحـى

لحكمة يعلمها الحكيم العليم .

وخلال هذه الفترة ، ستكون روح الرسولﷺ قد أشربت النور الجديد وتهيأت لاستقبال موكبه العظيم .

وخلالها أيضًا ستكون أشواقه الحميمة والعظيمة إلى الوحى قد قهرت كل مخاوفه وتهيبه ، وأعطت روحه مناعة هائلة ضد أى توجُّس أو تساؤل .

أجل ، لقد تُرك لأشواقه المحتدمه والعارمة تُشكل مُناخ علاقته بالوحى حين يعاوده ويجيئه وتُنضج استعداده الأخير لصحبته ..

وهكذا ، رأيناه عليه السلام ، ينطلق أمام ضغط أشواقه إلى الجبل ، مقلّبًا وجهه فى السماء ، معتصرًا ماقيه بدموع الحب والرجاء ، هاتفًا ضارعًا من أعماق صمته المدوى ، على روح القدس يمُن عليه بعود قريب .

لكن الروح القدس لا يملك من أمره شيئًا .. وفيما بعد سيخبر الرسولﷺ بهذه الحقيقة قائلاً له :

﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما
بين أيدينا وخلفنا وما بين ذلك
وما كان ربُّك نسيًا ﴾.

وظل يعاود قنن الجبال راجيًا أن يراه ..

وعلى الرغم من احتدام أشواقه ، وتوقد لهفته ، وتوجُّسه الرهيب ، من أن يكون الله قد أهمل أمره وقلاه .. على الرغم من ذلك كله ، فإن ذلك كله لم يذهب به إلى حد الرغبة فى تحرير نفسه من هذا القلق بالتخلص من الحياة كما تزعم بعض الأقاويل .

إن كل عناصر الموقف ترفض وتدحض هذه المقولة .

فليس محمد بشخصيته الراسخة وشمائله الشامخة ، من يصنع ذلك أو يفكر فيه .

ثم إِن الأشواق حين تتفجر على النحو الذى عاناه الرسول ، يكون من شأنها أن تمنح الأمل والرجاء ، لا القُنوط واليأس .

أما اختياره المرتفعات ليناجى فوقها نفسه ، ويتحسس أمله ، فلأنها دائمًا أصلح مواطن التأمل ، والتماس السكينة ، وتوقُّع الإِلهام .

* * *

ألا ما أجلها من حكمة ــ تلك التى أرادت أن يفْتُر الوحى عنه إلى حين ..

فإلى جانب كونها فرصة تستوعب فيها الروح شحنة النور التى تلقتها فى أول لقاء مع جبريل .

وإلى جانب كونها مجالاً لتجميع كل قوى الشخصية وحشد طاقاتها لتقوى على الصحبة الطويلة للوحى .. تلك الأيام ستدوم ثلاثة وعشرين عامًا كاملة .

وإلى جانب كونها تمكينًا لعلاقته المقبلة مع الوحى عن طريق تحريك أعماقه بالشوق الوثيق والحميم .

وإلى جانب ما قد تومىء إليه من منحه حق الاختيار، إن شاء أن يتقدم حاملاً من أعباء الرسالة ما يطاق وما لايطاق . وإن شاء فليتأخر ، قبل أن يرتبط مع الوحى بعهد وميثاق ..

نقول : إلى جانب هذا الذى يمكن أن نلتمس فيه بعض الحكمة فى انقطاع الوحى عن الرسول ﷺ إلى حين .. فقد كان فى وسعه خلال تلك الفترة أيضًا . أن يعيش فى نور الآيات الخمس التى لقنه الوحى إياها فى الغار .

هذه الآيات التى تطل كلماتها المعدودةُ على موكب زاخر من المعانى والدلالات .

هذه الآيات التى لم تستهل حديثها معه عن القرشى،

ولا عن العربى .. بل عن الإنسان :

﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾

وكأنها تشير إلى التخوم البعيدة والفسيحة لرسالته ..

فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ لن يكون لقريش وحدها ، ولا للعرب وحدهم ، بل للناس كافة وللبشر أجمعين .

كذلك سيكون فى وسعه أن يروِّضَ نفسه على الكثير من الصبر والاحتمال وتجريد يقينه من كل علاقات الحياة والناس .. هذه الأمور الكبرى التى سيذكره القرآن بها كثيرًا فيما بعد قائلاً له :

﴿ فاصبر لحكم ربك ، ولا
تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو
مكظوم ﴾.

سورة القلم – الآية:٤٨

﴿ فاصبر لحكم ربك ، ولا
تطع منهم آثمًا أو كفورًا ﴾ .

سورة الإنسان – الآية: ٢٤

﴿ ولولا أن ثبتناك ، لقد كدت
تركن إليهم شيئًا قليلا ﴾.

سورة الإسراء - الآية:٧٤

أجل .. إن مع الرسولﷺ الآن، وخلال فترة انقطاع الوحي عنه أعظم فرص امتلاك الصبر والاحتمال والتجريد .

وكأنما أراد الوحي بانقطاعه عنه أن يُتيح له هذه الفرصة في ذروة تعبيراتها ومسلكها .

فالذين هامت قلوبهم بحب الله ونذروا حياتهم له سبحانه ، قد يطيقون الصبر معه ، أي مع ما يتوسلون به لمرضاته من عبادات بالليل والنهار .

وقد يطيقون الصبر في سبيله ، بما يحتملون من أذىً واضطهادٍ .

لكن الأمر الذي يجاوز طاقتهم حقًا ، هو الصبر عنه..!!

ومن ثم لانجد نبيًا ولا وليًا ولا قديسًا يزلزله في أهوال الحياة كلها شيء إلا أن يُسلب نعمة حب الله له ، وحبه لله .

فالصبر عن الله أمر فوق طاقة كل قديس بل وكل نبي..

فكيف إذا عاني هذا الموقف الرهيب رجل جمعه مع الله وحي

سمعه وأحسه ، ورآه ..؟ كيف إذا عاناه رجل أرسل الله إليه وحيًا وسفيرًا يباركه باسمه ويبلغه تحيته ورضوانه ثم إذا هو فجأة ينقطع عنه دون أن يعطى وعدًا بلقاء ..؟

هنا الفرصة التى لا تتكرر لكى تحل فى روح الرسول وشخصيته أقصى ما عرف البشر وما لم يعرفوا من قوى الصبر والاحتمال والتجريد .

فأما الصبر والاحتمال ، فها هو ذا يرى فى لحظة من الزمان ـ الشمس ملء يمينه والقمر ملء يساره .. ثم فجأة لا يراهما .. ولا يرى إلا فراغًا وحيرة .. وليس أمامه سوى الصبر حتى تعود الفرصة اليتيمة ، إذا كان مقدرًا لها أن تعود. ولكى يصبر على مثل هذه التجربة ويحتملها ، فإن عليه أن يُمارس نوعًا من الصبر لم تعرفه الدنيا من قبل ..!!

وأما التجريد التجريد .. تجريد يقينه بربه من كل العلاقات حتى تلك التى تكون مشوبة لليقين وانعكاسًا له .. فها هو ذا يظفر بما لا يخطر على قلب بشر من الناسكين والعابدين ـ وحى من الله يزوره ويُقرئه آياته ، فيقول له : أنت رسول الله .. وأنا جبريل .. ثم يمضى كأنه لم يجىء ، وكأن لم يكن . وينقطع وقتًا طويلا دون بادرة عودة ..

أهنـاك فرصـة أجـود مـن هذا وأبلغ ليجـرد الرسـولﷺ يقينه من كـل علاقـة ويحـرره بصـورة مطلقـة لـرب العـالمين ، ولذات اليقين ..؟؟

أجـل إن انقطــاع الوحـى يعنـى هـذا .. ولكأنـه يقـول للرسولﷺ : ليأت الوحى ، أو لا يأتى ..

ليذهب عنك إلى حين .. أو ليذهب عنـك إلى الأبـد .. ذاك أمر ، لله مرده ومرجعه .. أمـا أنـت فلتبـقَ مكـانك مـن العبادة والنّسـك .. وليبـق يقينـك فـى دائرة تبتلـه وتجـرده .. ولْتبق روحك حيث هى سابحة فى فلـك العبوديـة الخالصـة .. وبكلمة واحدة .. ابق مكانك ، ولا تُرد من الله سوى الله ..

* * *

ولقد اجتاز الرسـول -صلـى الله عليـه وسـلم- التجربـة بنجاح عظيم ، باذلا أقصى ما يملك البشر مـن طاقـة ، معانيًـا من مقاومة القلق ، ومن دعم قُوى الاحتمال والصبر فى نفسه مالا يقدر عليه سوى أولى العزم من المرسلين ..

وبعد حـين سيجيئه الوحـى فـى صلصلـة فـرح عظيـم، مستأنفًا معه الرحلة المباركة ، تاليًا عليه قول ربه العلى الكبير:

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم

نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ، مَآ أَنتَ

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وإِنَّ لَكَ

لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ، وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ

عَظِيمٍ .. ﴾ سورة القلم - الآيات ١-٤

لقد نجح "محمد"ﷺ وفاز فوزًا عظيمًا .

نجح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وجاء الوحى يتوّجه بأكرم وأشرف وأطهر تاج ..

﴿ وإن لك لأجرًا غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ﴾

هل نستطيع أن نتصور بهجة العيد وجلال العيد الذى أقامته السماء لصفيّها ورسولها ، حيث يتلقى فيه بعد طول قلق وتساؤل واصطبار نداء الله العظيم أن ها أنذا معك من جديد ومعك دائمًا ، يا صاحب الخُلق العظيم ..؟!

* * *

هنيئًا لك ، أبا القاسم ، ما أُعْطيت وأوليت .. وهنيئًا لأمتك بك .

والآن ، فمع وحى الله وسفيره .. لن تُقلّب وجهك بعد اليوم باحثًا عنه .. فهو معك بإذن ربه ، يتنزل على قلبك

بالنور والفرقان . فغدًا يتلو عليك :

﴿ يا أيُّها المُزَّملُ .. قُمْ
اللَّيلَ إلاَّ قَليلاً.. نِصْفَهُ أو انْقِصْ
مِنْهُ قَليلاً .. أو زِدْ عَلَيْهِ ورَتِّلِ
القُرآنَ تَرْتِيلاً ﴾.

سورة المزمل-الآية ١-٤

وبعد غد ، يأتيك بإعلان البعثة والرسالة والتكليف :

﴿ يا أيُّهاَ المُدَّثِرُ ، قُمْ فَأنذِرْ .. ﴾

سورة المدثر-الآيات ١-٢

ثم تتوالى روحاته وغدواته ، بين السماء والأرض .. بين الله ورسوله . لسوف يصحبك ثلاثًا وعشرين سنة .

وسوف لا تفتقد أبدًا مدد ربك ، ولا صُحبْة خليلك .. وستتم النعمة لك .. وعليك يا أبا القاسم ...

ولسوف يعطيك ربك فترضى ....

الفصل السابع

أبشرٌ يهدوننا ..؟!

كانت مأساة البشر عبر الحقب والقرون ، إنهم كلما جاءهم رسول من أنفسهم يأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما يشربون .. يحمل لسانهم ، ويتحدث معهم وإليهم بلغتهم ..

كانت مأساتهم أنهم يدينونه ما كان ينبغي أن يكون موضع الإجلال والتوقير ، وداعي التصديق والتوثيق ..

أجل ـ كانوا يدينون بشريته ، ضانين بالرسالة على البشر وبنى الإنسان ..!!

كان ذلك يعنى المراوغة والهروب من مواجهة الحق المبين.. كما كان يعنى جهلهم الأعمى بقيمة الإنسان..!!

هنالك استكثروا أن يصطفى الله من البشر رُسلاً

وأنبيـاء ، فقالـوا - فى كل أحقابهـــم ، ولكــل رسـلهم-: ﴿ أبشرٌ يهدوننا ﴾ . . ؟ !

كأنهـــم لم يعرفــوا ، أو عرفـــوا و لم يصدقـــوا أن الله اصطفـى آدم ، ونوحًـا ، وآل إبراهيــم ، وآل عمــران علــى العالمين .. وإنه سبحانه وتعالى آثر "آدم" عليه السلام ، فجعله فى الأرض خليفـة ، رغم تطلع ملائكته المقربـين لهـذه المكانـة الرفيعة.. وإنه ـ عز وجل ـ كرم نبيه وفضلهـم علـى كثـير ممـا خلق تفضيلا...!!

* * *

كل أمة قد خلا فيها نذير .. وكـل أمـة قـالت لنذيرهـا ورسولها : "ما أنت إلا بشر مثلنا" ..

وأى بأس ..؟؟

أكانوا ينتظرون "ملكًا" رسولاً ..؟؟

أليس الله أعلم حيث يجعل رسالته ..؟؟

وإذا كانوا لم يطيقوا صحبة الرسول البشر ، وهو واحـد منهم .. فأنى لهم أن يطيقوا الرسول الملــك .. وأن للملـك أن يصبر على صحبتهم ، وعلى مكرهم ، وما يأفكون ..؟ ؟ !!

كلهم قالوا : "أبشرٌ يهدوننا" . . ؟ !

وكذلك قالت "قريش" لابنها الأمين .. ولقد حذرها الله سبحانه في قرآنه العظيم ، وحذر كافة المشركين والمكذبين الذين أخفوا أضغانهم وأحقادهم خلف هذا المنطق المُهلهل ، والمقُولة الدّاحضة .. حذرهم أن يركبوا سنة الذين من قبلهم فقال جل جلاله :

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين كفروا
من قبل، فذاقوا وبال أمرهم، ولهم
عذاب أليم . ذلك بأنه كانت
تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا:
أبشرٌ يهدُوننا ..؟ فكفروا،
وتولوا، واستغنى الله، والله غنى
حميد ﴾ ! !

الآية ٥،٦ سورة التغابن ٦٤ .

تلك كانت مشكلة المكذبين بآيات الله ورُسله ..

فقالوا : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم،
يأكل مما تأكلون منه، ويشرب مما
تشربون ﴾ .

الآية ٣٣ سورة المؤمنون ٢٣

وقالوا : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ .

الآية ٢٤ سورة المؤمنون ٢٣

وقالوا لرسلهم : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ﴾.

الآية ١٥ سورة يس ٣٦

وقالوا : ﴿ .. وما أنت إلا بشر مثلنا، وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ ..

الآية ١٨٦ سورة الشعراء ٢٦

وقال بعضهم لبعض :

﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم ، إنكم إذن لخاسرون ﴾ .

الآية ٣٤ سورة المؤمنون ٢٣

وقالوا : ﴿ أبشر منا واحدًا نتبعه .. إنا إذن لفي ضلال وسُعُر ﴾ .

الآية ٢٤ سورة القمر ٥٤

* * *

بهـذه التسـاؤلات الغبيـة ، واجـه قـوم كـل رسـول رسولهم.. وبمثلها واجه مشركو مكـة سيدنا "محمـداً" رسـول الله إليهم ، وإلى العالمين ..!!

ولقد كان المرسلون جميعًا ـ عليهم صلوات ربنا وسلامه ـ لا يكفون عن تقرير بشريتهم ، وتوكيدها ..

﴿ قالت لهم رسلهم : إن نحن
إلا بشر مثلكم ﴾ .

الآية ١١ سورة إبراهيم ١٤ .

﴿ قل : إنما أنا بشر مثلكم
يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ﴾

الاية ١١٠ سورة الكهف ١٨ .

﴿ قُل : سبحان ربى .. هل
كُنت إلا بَشراً رسولا ﴾ ؟!

الآية ٩٣ سورة الإسراء ١٧ .

وكان الرسول "محمد" عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام يؤكد هذه الحقيقة ، ويُعنى بترسيخها فى قلوب الناس وعقولهم .

وعلى الرغم من أن خصومه من المشركين كانوا

يركزون على هذه المقولـة : ويجعلـون منهـا ومـن المعجـزات المادية المحسوسة تحديًـا مزعجًـا .. إلا أن الرســول ــ عليـه الصلاة والسـلام ـ بقى صامـدًا مؤكدًا أنه رسول من البشـر، وإلى البشر .. مُعلنًا ما أمره ربه أن يصدع به :

﴿ قل : لـو كان فـى الأرض
ملائكة يمشـون مطمئنين ، لنزَّلنا
عليهم من السماء ملكًا رسولاً﴾.

سورة الإسراء : الآية ٩٥

لقد جهل المشركون أن الله ـ جـل جلالـه ـ لا يمتحن، ولا تناله اختبارات الناس وتفسيراتهم .. ومن ثم فهم بـاطلون ومبطلون حين يتطاولون بالقول ، فيسألونه سبحانه: أن يريهم قدرته من خلال "محمدٍ" إذا كان إلهًا حقًا قديرًا.. وأن يُريهـم صدق "محمدٍ" من خلال قدرتـه وتوثيقـه وتـأييده لهـذه النبـوة ولصاحبها ..!! لم يستطيعوا أن يرتفعوا بتفكيرهـم إلى المستوى الذى عنده يدركون أن معجزة "محمدٍ" هى "محمـدٌ" ذاتـه..!! وأن أروع آياتـه ومعجزاتـه ، مـاثل فـى أن الله جعلـه هُـدى ونورًا.. وأن القرآن العظيم بكـل مقـاييس العظمـة ، الصـادق بكل مقاييس الصـدق ، هـو المعجـزة اللائقـة بديـن هـو خـاتم

الأديـان .. ومـن ثـم فهـو بـاقٍ ، وخـالد ، وعميـم .. ولأنـه كذلك ، فان توثيقه لا يعتمد على خوارق مادية ، لا يراها إلاّ الذين يشهدونها فى بضع لحظات ، ثـم تنتهـى وتُصبـح مجـرد ذكرى وأحاديث .

إنما يعتمد على "كتاب مُنير" لا ينصل بهاؤه .. يحمل إلى البشرية فى كل عصورها وأجيالها ما أودعه الله فيه من حكمة وهدى ونور ..

* * *

لم يدرك الجاهليون فى عصر الوحى هذه الحقيقة الناصعة والساطعة .. ولا يزال كثيرون من خصوم الإسلام فى عصرنـا هذا عـاجزين عـن إدراكهـا . أو هُـم قـادرون علـى إدراكهـا ورؤيتها وسماعهـا ، لكنهـم لا يستجيبون ..!! طـالب كفـار مكة الرسول الأمين ببضع خوارق مُضحكة .. حملهـا القـرآن الكريم إلينا ، وإلى الأجيال ..

﴿وقالوا : لن نُؤمن لك حتى
تفجر لنا من الأرض ينبوعـا .. أو
تكـون لك جنة من نخيل وعنب،
فتفـجر الأنهار خلالها تفجيرا ..أو

تُسقط السماء ، كما زعمت علينا
كسفا . . أو تأتى با لله، والملائكة
قبيلا .. أو يكون لك بيت من
زُخرف .. أو ترقى في السماء ..
ولن نُؤمن لرُقيك حتى تُنزل علينا
كتابًا نقرؤه .. قل : سبحان ربى!!
هل كنتُ إلا بشرًا رسولاً . وما منع
الناس أن يُؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا
أن قالوا : أبعث الله بشرًا رسولا ﴾.؟!

الآيات ٩٠ إلى ٩٤ سورة الإسراء ١٧

ماذا وراء هذا المنطق المخبول .. إن كان منطقًا على الإطلاق . . ؟ !

وراءه أناس ، لا يريدون رسولا .. بل يطلبون "ساحرًا" يسترهبهم بسحره . . ! !

ويطلبون "اقطاعيًا" ضخمًا .. و"رأسماليًا" فخمًا ، تكون له القصور المزخرفة ، والحدائق الباذخة ..!!

ويبتغون "إلهـا" يُسقط السماء كسفًا .. وينزل إليهم متحدثًا معهم ، ومُصافحًا لهم .. وتجيء معه الملائكة قبيلا..!!

وتولى الله الجواب بما أنزله على قلب رسوله :

﴿ قُل سُبحان ربى !! هل
كنتُ إلاّ بشرًا رسولاً ﴾ ؟!

* * *

إن الصدق يحمى نفسه ، ويؤكد نفوذه .. وهذه أوضح سماته ، وأعظم ميزاته..

ومع الصِّدق ، تجيء معجزة أخرى من المعجزات الأصيلة ، والخليقة بالتقدير ، متمثلة فى هذا القدر الباهر من الثبات والمثابرة .. ثبات الرسول وثبات أصحابه العُزل والمستضعفين ، كانت أولى مجابهاته ومواجهاته للخصومات اللجبة ، والتحديات اللاهثة .. مفاجأة بالغة القسوة .. بيد أنها فى نفس الوقت كانت نعمة مُقنّعة جاءت فى أوانها..!!

ذلك أنه بعد فترة من مبعثه ، وحيث كان يُبشر بدعوته سرًا ، جاءه الوحى الأمين حاملاً أمر الله لرسولهﷺ بالجهر والعلانية :

﴿ فاصْدع بما تُؤمر،
وأعرض عن المشركين ﴾

الآية ٩٤ سورة إبراهيم ١٥ .

فنهض عليه السلام ، آخذًا طريقه إلى تلة الصفا .. ومن علیائها راح يُنادى بصوت قوى جهير داعيًا العابرين إلى الإقبال عليه ، والإصغاء لما يقول ..

وكان قبل ذلك قد أرسل فى طلب زعماء قريش وشيوخها ليلتقوا به عند الصفا ..

وهناك وقف يُلقى أولى كلماته الجهيرة المعلنة :

"أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً
بالوادى تريد أن تغير عليكم ..
أكُنتم مُصدقىّ..؟؟

وأجابوه بملء خبرتهم بطهر حياته ، وبصدق كلماته، وبثقتهم الكاملة التى أضفاها عليهم سلوكه العظيم والنبيل، منذ كان يافعًا .. وحتى هذه اللحظة التى ينهض فيها خطيبًا..

أجابوه: نعم والله نصدقك، فما جرّبنا عليك كذبًا أبدا..

قال صلى الله عليه وسلم :

"فإنى نذير لكم بين يدى عذاب
شديد ، وإنى رسول الله إليكم : أن
تعبدوه وحده ، ولا تُشركوا به شيئًا"

الله وحده .. ولا شريك له ..

فأين إذن "هُبل ، واللات ، والعُزى" ..؟!

كانت كلمات الرسول العابرة القصار كوميض البرق وقعقعة الرعد ..

أما الثلاثون الذين كانوا قد استجابوا لله وللرسول ، وأسلموا فى مرحلة الخُفية والمساررة ، فقد أضاءت وجوههم أنوار متألقة غامرة ..

وأما الكافة من أهل مكة الذين يستمعون هذا النشيد السماوى لأول مرة ، فقد راحوا يتبادلون الدهشة والنظرات.. وأما عِلية قريش وصفوتها، فقد بهتوا، ووجموا، والتقت نظراتهم الحائرة والخائرة عند وجه "أبى لهب" وكأنها تسأله:ـ

ما رأيك فى ما سمعت ، يا عم محمد ..؟!

وكان أبو لهب عند حسن ظنهم بحُمقه ، فصاح فى وجه ابن اخيه بعبارته المنكرة : تبًا لك .. ألهذا جمعتنا ..؟!

وكانت مفاجأة قاسية .. فها هو ذا عم "محمد" عليه السلام ، هو الذى يُسفه مُبادرته الكريمة ، ويشجب دعوته العظيمة ..!!

لم يـأتِ هـذا الشـجب ، ولا هـذا الاستنكار مـن أحـد آخر.. إنما جاء من عمه ، وأقرب الناس اليه ..!!

بيد أن هذا الموقف المشحون بالإحراج ، وبالسوء ، كان كما أسلفنا "نعمة" مُقنّعة ومتنكرة في سورة بلاء ..

لكأنما أراد الله سبحانه ، أن يضع هذا النذير أمام رسوله صلى الله عليه وسلم .. لكأنه يقول له : أمامك زمن صعـب، وجهاد عسير ، فلا تعتمد على غيرنا ، ولا تعقـد الأمـل على سوانا ، ها هو ذا عمُّك .. انظر كيف تحدّاك مـن دون النـاس جميعًا ، بدلا من أن ينصرك ، ولـو بالصمت المُـرور .. امض لما نأمـرك .. ودعنـا نُرتّب نحن أمورك .. وسـترى أننـا أولى بك منك ..

يالـه مـن درس حكيـم وعظيـم ، جـاء فـى موعـده وأوانه..!! ولقـد حـذق الرسول صلى الله عليه وسلم الدرس واستوعبه تمامًا .. فها هو ذا بُعيد وفاة زوجته "خديجة" وعمه "أبى طالب" ، وكانا أكثر الناس احترامًا لـه ، وحرصًـا عليه، وتفانيًـا فـى حبه ونُصرتـه ، لا يُحـاذر ولا يخشـى .. ولا يتخفّف من عبئه ، ولا يتئد فى خطوه ، ولا يجرى حسابًا مـع نفسه ومع عواقب الأمور بعد أن رحـل عنـه نصـيراه الأثـيران

والكبيران .. بل يحمل قلبه الجسور فى يمينه ـ بارك الله يمينه ـ مُوليًا وجهه شطر مدينة "الطائف" داعيًا أهلها الشرّسين إلى دين الحق ، راجيًا أن يشكل منهم كتيبة من كتائب الدعوة، تشدُّ أزرها ، وترد كيد عاديها ..

لم يخفْ ، ولم يُجفل ، ولم يصطحب معه أحدًا من أصحابه المؤمنين .. بل ذهب فردًا مُتفردًا .. لا يألو على شىء ولا يحسب للمفاجآت أىّ حساب ..!!

وحين لقيه زعماء الطائف بصلفهم وبشراستهم إلى الحد الذى اغروا فيه سفهاءهم أن يسخروا منه ويحصبوه بالحجارة حتى أدموا عقبيه ، لم تهزه المفاجأة على الإطلاق ..!!

ألم يتوقع النصرة فى مظانّها ، يوم حديثة الأول إلى قريش على الصَّفا ..؟؟ ثم جاءته المفاجأة الذاهلة حين أخلف الواقع ظنه ، فإذا عمه "أبو لهب" يكون أول من يُلقى القُفاز فى وجهه ..؟!

أنى يجيئه الخوف إذن من المفاجآت مهما يكن سُوءها وسوْآتُها ..؟؟

وأنى له انتظار النصر من غير رب النصر ، الغالب على أمره .. المسيطر بقدرته وقدره ..؟!!

لقد صار عليه الصلاة والسلام صديقًا للمجهول .. لا تستثيره المفاجآت مهما تتلفع بالغموض .. ولا تُرجفُه أو تُفزعه احتمالات العواقب مهما تحمله من جراح ورُضوض ..!! أما أعداء الله وأعداؤه ، والضّاغنُون على دعوته .. والحاقدون على شرف رسالته ، فقد ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظُلمات لا يبصرون ..

* * *

كان ثبات سيدنا "محمد" صلى الله عليه وسلم وكان إصراره ومُثابرته .. ثم من بعد ذلك كله أو معه ، كانت تضحياته المتألقة ، والمتفوقة ، تصنع وتصوغ وتكتب تاريخًا جديدًا لشرف الإنسان .. وشرف الإيمان ..

ولقد يبلغ رجل ما من الرجال أعلى وأسمى آفاق الثبات والتضحية والمُثابرة نتيجة احتوائه على قُدرات عقلية ونفسية هائلة ..

أمّا أن ينتقل نفس القدر من التضحية والمثابرة والثّبات إلى الآخرين الذين لا يمتلكون مثل قُدرات نفسه وعقله وروحه .. والذين لا يدفعهم من دوافع الدنيا وطموحاتها أى دافع .. والذين يرسلون خواطرهم نحو المجهول ، فلا يجدون

على جانبيه إلاّ أخطـارًا مُحدقـة .. وشـدائد مبرّحـة .. ومحنًـا تزحم الطريق الطويل ..!!

أقـول : أمّـا أن يحـدث ذلـك ، فـالأمر إذن أمـر إعجـاز فريد، بقدر ما هو مجيد ..!!

أقول : أمّا يتصدّر صفـوف المبكريـن بالإسـلام ثُلـةٌ مـن صفوة قريش وحكمائها .. مُعرضين شرفهم الرفيع وجـاههم العريـض ، وزعـامتهم ، ومكـانتهم لإسـفاف المشـركين وسـفالاتهم وكيدهـم الأحمـق ، وأذاهُـم المسـعور .. دون أن يكون هناك مغانم ينتظرونها ، وأمانيٌّ يترقبون مجيئها ، واثقـين لا غير ـ بكلمة واحدة واعـدة همـس بهـا الرسـول صلـى الله عليه وسلم فى آذانهم :

الجنَّة . . ! !

فهذا إعجاز آخر .. ولن يكون الأخير . . ! !

الفصل الثامن

ولماذا هو بالذات ؟ ؟

ما دام الذى اختاره لرسالته وحمْل كلمته هو الله رب العالمين .. الله الذى بيده مقاليد كل شىء ، ويعلم السِّر وأخْفَى .. ما دام ذلك كذلك ، فما أظن أن لنا الحق ـ إن كنا بالله من المؤمنين ـ أن نلقى بهذا السؤال جَهرة ، أو نطوى عليه الصدور ..

فربنا العظيم وهو العليم الخبير أنبأنا حين قال جل جلاله:

﴿ اللهُ أعلم حيث يجعل رسالته ﴾

ولم يكن علم الله بمن يختاره لرسالته خاصًا بسيدنا محمد عليه السلام بل عامًا فى كل اختيار لكل المرسلين .. يقول سبحانه :

﴿ ولقد اخترناهم على علم
على العالمين ﴾

فبعلمه الذى لا يعزُب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ..

وبمشيئته التى لا تُغلب ، وبحكمته التى لا تَغفو، ولا تتردد ـ اختار من عباده إبراهيم وموسى وعيسى ونوحًا ويونس وإخوانهم من الأنبياء والمرسلين ، ثم ختمهم بمحمدﷺ الرسول والنبى الأمى الذى يؤمن با لله وكلماته ، ثم قال لنا :

﴿ واتّبعوه ، لعلكم تهتدون ﴾

ولأنه خاتم المرسلين ، أخذ الله له البيعة منهم ومن أممهم جميعًا . وإنه ليقول :

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين
لَما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم
جاءكم رسول مصدق لما معكم
لتؤمنن به ولتنصرنه ؟؟

﴿ قال أأقررتم وأخذتم على
ذلكم إصْرى ـ أى عهدى ـ ؟؟

﴿ قالوا أقررْنا ..

﴿ قال فاشهدوا وأنا معكم من

الشاهدين ﴾

سورة آل عمران-الآية:٨١

وهكذا يجيب الله كل مَن يسأل ـ وقبل أن يسأل ـ لماذا اختار "محمدًا" ﷺ ليحمل رسالته إلى الناس ـ جميع الناس مبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا مُنيرًا ..

* * *

وحين يختار الله جل جلاله من عباده من يُعلّم ، ويهدى ، ويقود ، رافعًا راية الحق والخير والطهر والحرية والعدل، فمن البدَاهة أن يُهيئه لهذا الدَّوْر بأعلى الخصائص وأسمى الأخلاق فى الرسائل والغايات .. ولا يستطيع من يعرف سيدنا محمدًا ﷺ أو من يريد أن يعرفه ألاَّ يقف طويلاً مع أعرف الناس به وأكثرهم صحبة له وأصدقهم لهجة إذا تحدث عنه .

ذلكم هو صاحبه وابن عمه وزوج كريمتة الإمام "على ابن أبى طالب" كرم الله وجهه ، فلتصغ له وهو يتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

"كـان دائـم البـشر ، سهل
الخلُق ، لَيّن الجـانب .. ليس بفظ
ولا غليظ ولا صخّـاب ولاَ عَيّاب
أجود الناس صدرًا ، وأصدق الناس
لهجة، وألْيَنُهم عرِيكـة، وأكـرمهم
عشيرة .. من رآه بـديهة هَـابَه..
ومن خـالطه معرِفة أحبّه .. يقول
واصِفُه لم أر قبله ولا بَعده مثلـه ..
لا يدفـع السـيئة بالسيئة . ولكـن
يعـفو ويصفح .. وما رأيته منتصـرًا
لنفسه من مظلمة ظُلِمَها قط إلا أن
يُنتَهك من محارم ا لله شيء فَعِندَئـذٍ
يكون أشد الناس غَضبًا .. وما خيِّر
بين أمرين إلا اختار أيسرهما ..
كان يَخيـط ثوبـه ، ويحلـب شـاتَه،
ويخدم نفسه .. إذا غضب أعـرض
وأشاح وإذا فرح غضَّ طرفه.
وكـان يتفقّدَّ أصحـابه ، ولا

قصر عن الحق ولا يجاوزه .. أفضل
الناس عنده أعمُّهم نصيحة،
وأعظمهم لديه منزلة أحسنهم
مُواساة ومُؤازرَة .. إذا انتهى إلى
قوم جلس حيث ينتهى به المجلس،
ويأمر بذلك.. لايحسب جليسه أن
أحدًا أكرم عليه منه.. قد وسِعَ
الناس بسطُه وخلُقه ، فصار لهم أبًا
وصاروا عنده فى الحق سواء
قد طهَّر نفسه من ثلاث:
المِراء .. والكِبر .. ومالا يعنيه .."

* * *

هذه بعض محامد "محمد" ﷺ وخِصاله ..
وحسبه أن يُقسِم ربنا العظيم له ولنا فيخاطبه قائلاً :
﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾
هذا هو الذى نادى البشر بالأمس ، ويناديهم اليوم،
وغدًا، وبعد غد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .
فإلام دعا ؟ ؟ ولمن انطلقت أنوار شخصيته ، وأضواء

دعوته ، وحنان رحمته ؟

أجل - إلام ينادى "محمد" ﷺ اليوم ، البشَر المفدوحين بالجهالة ، والقسوة ، والضلال .. والمبشَّرين بسوء المصير والمآل ..؟ ؟ !

سنُبصر وتُبصرون .. ونسمع وتسمعون وسيكون الخير كله من حظ الذين يبصرون ببصائرهم قبل أبصارهم .. ويسمعون بأفئدتهم قبل آذانهم ..

ثم يُمجّدونَ الله ويحمدونه ويسألونه :

﴿ ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذْ
هديتنا ، وهَب لنا من لدنك رَحمة.
إنك أنت الوهاب ﴾

الفصل التاسع

فَلْينهض الإنسان

سعى إلى الرسولﷺ يومًا واحدٌ من زعماء الجزيرة العربية هو "مفروق بن عمرو، وواجَه الرسولﷺ بهذا السؤال :

إلاَم تدعو ، يا أخا قريش ؟؟

أجابه الرسولﷺ : أدعو إلى توحيدِ الله ، وأنى رسوله ..

قال مفروق : وإلاَمَ أيضًا ؟؟

فتلا صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة :

﴿ إن الله يأمر بالعدل

والإحسان ، وإيتاء ذى القربى..

وينهى عن الفحشاء والمنكر

والبغى ، يعظكم لعلكم تذكّرون ﴾

فقال مفروق : "هذا والله دين لا ينفر منه عاقل ، ولا يغيب عن مَشاهِده كريم" !!

إذن ، فهذه دعوة الرسولﷺ ومبادىء دينه وعقيدته :

* توحيد الله ، وتوجيه أفئدة الناس جميعًا إلى أن إلآهَهُم واحد ــ رب السماوات والأرض ، وما بينهما ، ورب المشارق والمغارب ..

* كما تتضمن الدعوة بعد الإيمان بالله الواحد الأحد ــ الإيمان برسالة "محمد" الذى اختاره الله ليبلّغ عنه ويُبشّر به ، ويدعو إليه ..وماذا أيضًا مما تحتضنه دعوته ورسالته ؟؟

العدل.. والإحسان.. ورفض الفاحشة، والمنكر، والبغى وهذه فى التحليل النهائى لها ، جُماع ما تتطلبه فى إلحاح وحتمية ، الحياة .. والإنسان ، لكى يبقى للحياة ازدهارها ، وللإنسان إنسانيته !!

ولقد فهمها "السائل" فقال قولته الذكية التى علّق بها على إجابة الرسول .

وفى الفصول القادمة إن شاء الله تعالى سنلتقى بتفصيل ما أوجزه سيدنا مفروق فى بضع كلمات ..

كـان "مفـروق" مـن سـادات العـرب .. وأمـام إجابـة الرسول عن سؤاله ، ألْقَى السمع وهو شـهيد . معلنًـا أن هـذا الدين أصدق وأوثق وأجل من أن ينصرف عنه رجل رشيد ..

وموقف "مفروق" هذا يصحح فكرنا عن أوائل المسلمين الذين سارعوا إلى الرسول فى حب غامر وإيمان مَكين ..

ذلك أننا نقف عند نفرٍ من الفقراء والعبيد الذين سارعوا إلى الإسلام مثل "بلال" و "خبَّاب" و "آل ياسر" ـ فنظن أنهم وحدهم كانوا أبطال المشهد الأول .. ناسين ذلـك النفـر مـن العِلْية الذين لم يكادوا يبصرون شفتى الرسول العظيم تنفرجان عن كلمات ـ الله .. والقرآن .. والإسلام .. يَمَّمُوا مسـرعين نحـو الرحيق ، والنـور ، والمستقبـل المـوعـود .. فكـان هنـاك "أبـو بكـر" و "عبـد الرحمـن بـن عـوف" و "سـعد بـن أبـى وقّـاص" و "عمـر بـن الخطـاب" و "عثمـان بـن عفـان" .. ـــ وكلهـم، ومثلهـم معهـم ، مِـن سـادات قريـش ومـن صفـوة رجالها..

وهذا يدلنا على أن شخصية الرسول المقْنِعة . والآسرة ـــ كانت شخصيته وسَطًا تمنح بالقِسط شرف الحق .. ونـور الإيمان .. وتقوى الحياة .. ولا يكاد أحد يلقاها بصدر وَدود،

وفهم رشيد حتى تنثالَ عليــه بركاتهـا مالئـة رُوعـه بـالإجلال وباليقين.

في كتابي "إنسانيات محمد" : أهديت الكتاب إلى سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الكلمات :

* ـ يا من جئت الحياة فأعطيتَ
ولم تأخذ ـ يا مَن قدَّستَ الوجود
كله ، ورعيت قضية الإنسان ..

* ـ يا من زكَّيت سيادة العقل،
ونَهْنَهْتَ ـ غريزة القطيع ..

* ـ يا من هيأك تفوقك لتكـون
سيدًا ــ "فـوق" الجميـع ، فعشـت
واحدًا "بين" الجميع ..

* ــ يـا مـن أعطيــت القـدوة،
وضــــربت ــ المثـــل ، وعبَّـدت
الطريق ..

* ـ يا أيها الرســـول ، والأب،
والأخ ، والصديق..

إليــك أهــدى هذه الصفحــات فــى
حياء من يعلم أنه يجاوز قــدره بهــذا
الإهداء ...

والآن ، فـإن الصـورة التى رسمْتها كلمــات الإهــداء لم تتغير، و لم ينصل بهاؤها .. بل ازدادت ألَقًا وصدقًا ومجدًا .

فهـذا ــ حقًـا ــ هـو الإنسـان الكـامل الـذى قدمــه الله لعباده.. والذى ينادى الإسلام البشَر إليه ، ليطـالعوا عظمتـه.. ويقرأوا رسالته .. ويفهموا حقيقته ، فإذا هم به من المؤمنـين. وله من التابعين..

وعلى الرغم من أنه عابد زاهد أوَّاب فقد كان لُبـاب رسـالته إزهاد الحياة ، وإنهاض الإنسان .

إنه يريد للحياة إعمــارًا لا يُـؤْذِن بانتهــاء .. ولا يصـرف عنه انفطار السماء ، ولا انتثار الكواكب ، ولا تفجُّــر البحـار وبعثرة القبور ، ولا كل مظاهر البعث والقيامة والنشور !!

ولْنصغ لقولهﷺ :

"إذا قامت الساعة ، وفى يد
أحدكم فَسيلَة ، فليغرسها"

لو جمعنا كل ما قالـه الفلاسـفة والعلمـاء والحكمـاء فـى

والعمل فى سبيل نهوضه ورفعته وتقدمه الروحى والمادى ، ودعم حقه فى الحرية والعدالة ـ هو لُباب رسالة كل نبى وكل رسول .

ولما كان الرسول محمدﷺ خاتَم الأنبياء وآخر المرسلين فقد كان اهتمامه وكانت همومه بالإنسان أكثر أعباءً وأثقل حملا من كل أحمال وأثقال إخوانه الذين سبقوه من الأنبياء والمرسلين . وبروحه النضير وعزمِه القدير ، حوّل هذه الأعباء والأثقال إلى فيض لا يغيض من الحنان والرحمة والحب .

يسمع أصحابه يلعنون واحدًا من المسلمين شرب الخمر بعد تحريمها . فيزجرهم الرسولﷺ وينهاهم قائلاً :

"لا تلعنوه ، فإنه يحب الله

ورسوله" !!

ولم لا يفعل ، وقد قال الله عنه :

﴿ وإنك لعلَى خلُق عظيم ﴾..

وقال فيه :

﴿ لقد جاءكم رسول من

أنفسكم، عزيز عليه ما عَنِتم،

حريص عليكم ، بالمؤمنين

دعم الحياة واحترام حقها فى الاستمرار والتقدم والإعمار ، ما بلغ معشار ما تُفيئه كلمات الرسول هذه :

"إذا قامت الساعة ، وفى يد
أحدكم فَسِيلَة، فليغرسها"!!

إن الفسيلة من صغار النخل التى تُغرس فى الأرض لتنمو فيما بعد نخلة باسقة لها طَلْع نَضِيد .. فأى نفع وأية جدوى من غرسها إذا كان يوم البعث قد أطلّ بأهواله وقام الناس لرب العالمين ؟ ؟ ! !

إنه الالتزام المقدس تجاه العمل والحياة ، يحرص الرسول على قيام المسلم به حتى والدنيا تلفظ آخر أنفاسها ..!!

* * *

ولا يقل نهوضه بالإنسان عن إبقائه على الحياة فالإنسان مُصطفى الله لخلافته فى الأرض ، وموضع إكرامه وتكريمه

﴿ ولقد كَرَّمنا بنى آدم،
وحملناهم فى البر والبحر،
ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم
على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾
سورة الإسراء–الآية : ٧٠

رءوف رحيم ﴾ ..

سورة التوبة– الآية : ١٢٨

وإنه ليقول :

"بينما بَغِيٌّ تسير إذ رأت كلبًا يلهث
من العطش ، فخلعت مُوقَها وأدْلته
في بئر حتى مُـلِـئ مـاء ، فسقته،
فشكر الله لها، وغفر لها، وأدخلها
الجنة" ! ! !

ليس شرطًا أن تكـون هـذه الكلمـات اليانعـات تصويـرًا لحادث حدث وواقعة وقعت .. وحسبُها أن تكون مثلاً رامـزًا لرحمة ربنا وحنانه وهِباتـه كمـا يفهمهـا الرسـولﷺ ، وكمـا يُدرك أبعادها الجليلة التى تَطالُ كل أعراض الضعف الإنسـانى وما ينتجه من ذنوب وخطايا وأوزار !!

فالبغيّ المتقلبة بين أحضـان المنكـر والفاحشـة يستوقفها ظمأ كلب يلهث ، ويتندَّى قلبها الكسير بعاطفة حانية، فتشق مُرطها نصفين وتربط به مُوقَها أى نعلهـا ثـم تلقيـه فـى غَيَابـةِ البئر، حتى إذا امتلأ ماء جذبته فى رفـق .. واللاَّهـث الظمـآن لابث يترقب ويهز ذيله فـى سـرور ودهشـة .. وأخـيرًا تُدنِـى

البغى الماء فى فمه المرتجف ، فيشرب عَلَلاً بعد نَهْل .. حتى إذا رَوِى أقبل عليها يمسح كفّها وذراعها بلسانه تعبيرًا عن شكره وعرفانه .

ويفْترض الرسول الكريمﷺ أن الله يرقب المشهد من هناك من فوق سماواته وعرشه المجيد .. ويسألنا : ما تظنون أن الله صانع بهذا البغى ؟؟

لقد شكر لها .. وغفر لها .. وأدخلها الجنة ..!!!

* * *

ألاَ صدق ربنا العظيم حين قال لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾

وصدق الرسولﷺ حين قال عن نفسه :

"إنما أنا رحمة مُهْداة ..."

تصوروا رسولاً جاء ليغير العالم يُغْنَى فى نُبل عظيم بالحيوان فى لحظات ذبحه ، فيقول :

"إذا ذَبحتم ، فأحسنوا الذّبحة.ولْيُحِدّ أحدكم شفرته .. ولْيُرِح ذبيحته" !!

وإنه ـ عليه الصلاه والسلام ـ ليمر برجل يُوثِق ذبيحته بالحبال والسكين فى يده ترمقها الذبيحة بنظرات حزينة متفجعة، فينأى الرسول بوجهه وبصره ، ويأمر الرجل أن يُوارِىَ شَفرته ويرحم الذبيحة من أن تشقى برؤيتها مهدّدة متوعّدة..!!

* * *

والآن ، فلنرسل البصر متجهمًا وناقمًا إلى التنّين الروسى الذى يقترف فى "الشاشان" ومع شعبها المسلم كل أنواع الإفك والقتل والحرق والإجرام ..

ولْنرسل البصر إلى البوسنة والهرسك حيث يدمر الصرب الملاعين كل شىء هناك ــ الإنسان ، والحيوان ، والدور، والمساجد ، والمدن ، والقرى ..

وحيث يُجهزون فى وجبة واحدة على ثلاثة آلاف مسلم حرقًا بالنار !!

ولم يكفهم هذا ، فراحوا يفعلون ما يخجل الشيطان من فعله، فَيحْقِنُونَ أرحام المسلمات العفيفات المحصنات بنُطف الكلاب !!

ويزعمون ومن وراءهم من المجرمين الكبـار أنهـم للسـيد المسيح أتباع وأشياع ..

والسيد المسيح يبصق عليهم ويلعنهم ويُناديهم :

"يا أولاد الأفاعى .."

"كيف تتكلمون بالصالحات

وأنتم فَجرة" ؟؟!!

إننا إذ نتحدث عن رحمة الرسول صلى الله عليـه وسـلم وتكريمه الإنسان فلا حق لنا فى أن نقحم على الحديـث أدنـى ذكر لأولاد الأفاعى .. القتلة والآبقين ، الذين يزكـم نتنهـم الأنوف ...

رقم الإيداع	١٩٩٦/٥٢١٨
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 5732 - 6





خالد محمد خالد

هذا الرسول ﷺ

الذى نادى البشر بالأمس ، ويناديهم اليوم، وغدًا، وبعد غد ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فإلام دعا؟ ولمن انطلقت أنوار شخصيته ، وأضواء دعوته، وحنان رحمته ؟ .

أجل إلام ينادى محمد ﷺ اليوم البشر المفدوحين بالجهالة والقسوة والضلال، والمبشَّرين بسوء المصير والمآل ؟.

سنبصر وتبصرون ، ونسمع وتسمعون، وسيكون الخير كله من حظ الذين يبصرون ببصائرهم قبل أبصارهم، ويسمعون بأفئدتهم قبل آذانهم .

خالد محمد خالد



المقطم للنشر والتوزيع ٥٠ ش الشيخ ريحان - القاهرة ت ٣٥٥٨٢١٥، ف ٣٥٤٦١٠٩